الباب الحادى والعشرون

العصر الذهبي للفلسفة

الفصل الأول

العلماء

إذا وازنا بين حال العلم فى القرن الرابع وبين الخطوات الجريئة التى خطاها إلى الأمام فى القرن الخامس ، وبالانقلاب الثورى الذى حدث فيه فى القرن الثالث ، حكمنا من فورنا بأنه كان فى هذا القرن الأوسط فى حالة ركود ، وأنه قنع فى معظم الأحوال بتسجيل ما تجمع له فى القرن السابق . فقد كتب أكسانوقراطيس Xenocrates تاريخاً للهندسة ، وكتب ثاوفرسطوس تاريخاً للفلسفة الطبيعية ، وكتب مينون Menon تاريخاً للطب وأوديموس Eudemus وتواريخ الحساب ، والهندسة ، والفلك[1] . وبدا لعلماء ذلك العصر أن المسائل الدينية والأخلاقية والسياسية أكثر أهمية وأولى بالدرس من مشاكل الطبيعة ، فتحول الناس مع سقراط من دراسة العالم المادى دراسة موضوعية إلى البحث فى أحوال النفس وشئون الدولة .

وكان أفلاطون يحب العلوم الرياضية فغمر فيها فلسفته إلى أعماق بعيدة ، وجعلها شغل المجتمع العلمى ، وكاد فى سراقوصة أن يهب لها مملكة بأسرها . لكن الحساب كان فى نظره نظريات فى الأعداد تتصف بالكثير من الغموض ؛ ولم تكن الهندسة هى قياس الأرض ، بل كانت تدريباً عقلياً ، خالصا ، وطريقا يصل به العقل إلى الله . ويحدثنا فلوطرخس عن « غضب » أفلاطون من أودكسوس

Eudoxus وأرخيتاس Arehytas لأنهما قاما بتجارب فى الميكانيكا « فأفسدا الشيء الوحيد الطيب فى الهندسة ، وقضيا عليه قضاءً مبرماً ؛ وأبعداه بطريقة مخجلة يجللهما العار من المسائل العقلية الخالصة غير المجسمة إلى المحسوسات ، واستعانا على عملهما هذا بالمادة » . ويقول فلوطرخس بعد ذلك : « إن الميكانيكا قد انفصلت بهذه الطريقة عن الهندسة ، وأنكرها الفلاسفة وأهملوا أمرها ، فأصبحت من فنون الحرب[٢] ». على أن أفلاطون رغم هذا قد قدم للعلوم الرياضية بطريقته العقلية المجردة أجل الخدمات ؛ فأعاد تعريف النقطة وقال إنها مبدأ الخط[٣] ، ووضع قاعدة لإيجاد الأعداد المربعة التى هى مجموع مربعين[٤] ، واخترع التحليل الرياضى أو ارتقى به[٥] ، ونعنى بالتحليل الرياضى البرهنة على صحة قضية أو خطئها بالنظر إلى النتائج التى يؤدى إليها الأخذ بها ؛ وليست طريقة إقامة البرهان بنقض نقيضه إلا صورة من هذه الطريقة . وكان الاهتمام بالرياضيات فى منهاج المجمع العلمى عوناً كبيراً للعلوم الطبيعية ، ولو لم يؤد هذا الاهتمام إلا لتدريب تلاميذ مبتكرين أمثال أودكسوس النيدى(*)، وهرقليدس البنتى(*)، لكفاه فضلا .

وعمل أرخيتاس صديق أفلاطون على ترقية رياضيات الموسيقى، وضاعف المكعب، وكتب أول رسالة معروفة فى الميكانيكا . هذا إلى أنه اختير حاكما لمدينة تاراس Taras سبع مرات ، وكتب عدة بحوث فى الفلسفة الفيثاغورية . ويعزو إليه الأقدمون ثلاثة اختراعات عظيمة الخطر — البكرة وطارة السير ، واللولب ، (والخشخيشة). وكان الاختراعان الأولان أساس الصناعة الآلية ، أما ثالثهما فيقول عنه أرسطاطاليس فى كثير من الجد والوقار « إنه هيأ للأطفال

(*) Heracleides of Pontus ; Eudoxus of Cnidus

عمـــلا يشغلون به أنفسهم فمنعهم بذلك أن يحطموا ما فى البيت من أدوات[٦] » . وفى هذا العصر نفسه « ربع » دينوستراتس Dinostratus « الدائرة » باستخدام القوس الذى يمكن به إيجاد الخطوط المستقيمة المساوية لمحيطات الدوائر أوغيرها من المنحنيات. ووضع أخوه مينكموس Menaechmus أحد تلاميذ أفلاطون ، أساس هندسة القطاعات المخروطية(*)، وضاعف المكعب ، ووضع قاعدة التكوين النظرى للخمسة الأجسام الصلبة المنتظمة(**) ، وصاغ نظرية الأعداد الصماء ، وأورث العالم تلك العبارة المشهورة ، وهى قوله للإسكندر : « أيها الملك إن ثمة طرقا للملوك وأخرى لعامة الشعب يسافرون عليها فى أقطار الأرض ؛ أما الهندسة فليس فيها إلا طريق واحد يسلكه جميع الناس(†) [٨] » .

وأعظم رجال العلم فى القرن الرابع هو أودكسوس الذى أعان بركستليز على تخليد اسم نيدس فى التاريخ . وقد ولد فيها حوالى عام ٤٠٨ ، وشرع وهو فى الثالثة والعشرين من عمره يدرس الطب مع فلستيون Fhi'istion فى لكرى Locri ، والهندسة مع أرخيتاس فى تاراس ، والفلسفة مع أفلاطون فى أثينة . وكان لفقره يعيش معيشة ضنكاً فى پيرية ، ويسير منها على قدميه إلى المجمع العلمى فى كل يوم من أيام الدراسة . وبعد أن

(*) عرف اليونان القطاعات المخروطية بأنها الأشكال — القطع الناقص ، والقطع المكافئ ، والقطع الزائد — التى تنتج من قطع مخروط ذى زوايا حادة ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة بسطح عمودى عليه . وتضيف العلوم الرياضية الحديثة إلى هذه الأجسام الدائرة الخطوط المتقاطعة .

(**) وهما الهرم الثلاثى المنتظم ، والمكعب (ذو الستة الأوجه المنتظم) ، والمثمن المنتظم ، وذو الأثنى عشر وجها المنتظم ، وذو العشرين وجها المنتظم — وهى الأجسام الصلبة المحدبة التى تحدها أربعة سطوح منتظمة ، أوستة ، أو ثمانية ، أو اثنا عشر سطحا أو عشرون .

(†) كان لفظ الطرق الملكية يطلق عادة على الطرق العظمى التى أنشئت فى الإمبراطورية الفارسية . وتعزى هذه القصة أيضا إلى إقليدس وبطليموس الأول[٨] .

أقام زمنا ما فى نيـــدس سافر إلى مصر وقضى فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ثم نجده بعد ذلك فى سيزقوس البربوبنثية Proportin Cyz·cus يحاضر فى العلوم الرياضية . ولما بلغ الأربعين من عمره انتقل هو وتلاميذه إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، ونافس أفلاطون وقتاً ما . ثم عاد آخر الأمر إلى نيدس وأقام فيها مرصدا ، وعهد إليه أن يضع للمدينة طائفة من القوانين(٩) .

وقد وضع فى الهندسة عدة مبادئ أساسية ، فهو الذى وضع نظرية النسبة ومعظم الفروض التى انتقلت إلينا فى الكتاب الخامس من كتب إقليدس ، وهو الذى اخترع طريقة إفناء الفرق التى أمكن بها إيجاد مساحة الدائرة وحجم الكرة ، والهرم ، والمخروط ، ولولا هذا لكان عمل أرشميدس المبدئى مستحيلا . ولكن العلم الذى وهب له أودكسوس معظم جهوده هو علم الفلك . ونستطيع أن نلمح روح العالم فى قوله إنه يسره أن يحترق كما احترق فيتون إذا استطاع بهذا أن يكشف عن طبيعة الشمس وحجمها وشكلها(١٠) . وكان لفظ التنجيم Astrology يستعمل فى ذلك الوقت ليشمل ما نسميه الآن علم الفلك Astronomy ، ولكن أودكسوس أشار على تلاميذه أن يغفلوا نظرية الكلدانيين القائلة إن مستقبل الإنسان يمكن التنبؤ به بالنظر فى مواقع النجوم وقت مولده . وكان شديد الرغبة فى أن يرجع جميع الحركات السماوية إلى قوانين ثابتة ، ووضع فى كتابه الفينومينا Fhainomena — الذى يعده الأقدمون أعظم ما كتبوه فى علم الفلك — أساس التنبؤات الجوية .

(*) وكان من المسائل المحببة له مسألة إيجاد « القطاع الذهبى » أ أن يقسم الخط فى نقطة بحيث تكون النسبة بين الخط كله وجزئه الأكبر ، كالنسبة بين هذا الجزء الأكبر والجزء الأصغر .

وأخفقت أشهر نظرياته إخفاقاً باهراً . فقد قال إن العالم يتكون من سبع وعشرين دائرة شفافة لا تراها العين لشفيفها تدور فى اتجاهات مختلفة وبسرعات متباينة حول مركز الأرض ، وإن الأجرام السماوية مثبتة حول قشرة هذه الدوائر المتحدة المركز . ويبدو هذا النظام الآن نظاماً مغرقاً فى الخيال ، ولكنه كان أول محاولة بذلت لتفسير حركات الأجرام السماوية تفسيراً علمياً . وعلى أساس هذه النظرية حسب أودكسوس بدقة عظيمة (إذا ما اتخذنا « معلوماتنا » الحاضرة فى مثل هذه المسائل مقياساً نحكم به على الأشياء) أوقات اقتران الكواكب وحلولها فى البروج المختلفة(*) . وكان لهذه النظرية أثر أقوى من أية نظرية أخرى فى الزمن القديم لإيقاظ روح البحث العلمى .

وكتب إكفنتوس السراقوصى حوالى عام ٣٩٠ . ومن أقواله أن الأرض تدور حول مركزها فى اتجاه شرقى(١٢) » . وأخذ هرقليدس البنتى هذا الإيحاء ، أو لعله وصل إليه مستقلا ، وقال إن العالم لا يدور حول الأرض ، وإن الظواهر المتصلة بهذا الفرض يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض نفسها تدور مرة فى كل يوم حول محورها(١٣) . ومن أقواله أيضاً إن الزهرة وعطارد يدوران

(*) إن فترة الاقتران لجرم من الأجرام السماوية هى الزمن المحصور بين اقترانين متتاليين بينه وبين الشمس ، كما يرى من الأرض . أما فترة الحلول فى ب ج من البروج فهى الزمن المحصور بين ظهور جرم سماوى مرتين متتاليتين فى هذا البرج أى فى ذلك الجزء من السماء المقسمة تقسيما خياليا إلى اثنى عشر قسما يسمى كل منها برجا . وقدر أودكسوس فترة اقتران زحل بـ ٣٩٠ يوما ونقدرها نحن الآن بـ ٣٨٧ ؛ والمشترى بـ ٣٩٠ ، وتقديرنا نحن هو ٣٩٩ ؛ والمريخ بـ ٢٦٠ ونقدرها نحن بـ ٧٨٠ ، وعطارد بـ ١١٠ (وقد ورد فى أحد المخطوطات ١١٦) ، وتقديرنا هو ١١٦ ؛ والزهرة بـ ٥٧٠ وتقديرنا هو ٥٨٤ . أما الفترة بين حلول الكواكب فى الأبراج مرتين متتاليتين كما قدرها أودكسوس فهى ٣٠ سنة لزحل وتقديرنا نحن هو ٢٩ سنة و١٦٦ يوما ، والمشترى ١٢ سنة وتقديرنا نحن ١١ سنة و ٣١٥ يوما ، والمريخ سنتان ، وتقديرنا سنة و٣٢٢ يوما ، ولعطارد والزهرة سنة . وهذا يتفق بالضبط مع تقديرنا(١١)

حول الشمس ، ولعل هرقليدس فى لحظة من لحظات التجلى العلمى قد استبق أرسطرخوس وكوپرنيق ، لأنا نقرأ فى الجزازات الباقية من كتابات جمنوس Geminus (حوالى عام ٧٠ ق . م) أن هرقليدس البنى قال : « حتى لو افترضنا أن الأرض تدور بطريقة ما ، وأن الشمس ساكنة بطريقة ما ، فإن ما يبدو لنا من عدم انتظام الشمس لا يستعصى على الفهم[١٤] » . وأكبر الظن أننا لن نستطيع فهم ما كان يقصده هرقليدس بقوله هذا بالضبط .

وكانت العلوم الطبيعية فى هذه الأثناء تتقدم تقدماً بطيئاً . ففى الجغرافية قام ديقايرخوس المسانى Dicaearchus of Messana كاتب السير اليونانى بقياس ارتفاع الجبال ، وقدر طول محيط الأرض بما يقرب من ثلاثين ألف ميل ، ولاحظ تأثير الشمس فى المد والجزر . وفى عام ٣٢٥ سافر نيارخوس Nearchus أحد قواد الإسكندر بحراً من مصب نهر السند محازيا ساحل آسية الجنوبى إلى مصب الفرات ، وكان سجل سفينته الذى احتفظ أريان Arrian ببعضه فى كتابه Indica[١٥] من أهم الكتب الجغرافية القديمة . وكان علم المساحة التطبيقية — أى قياس السطوح ، والمرتفعات . والمنخفضات والمواقع ، والأحجام — قد وضع له اسم خاص يميزه من الهندسة النظرية geometry وهو الجيوديزيا[١٦] . وكان فلستيون Fhilistion أحد أبناء بلدة لكربى Lorcri الإيطالية يمارس تشريح الحيوانات فى بداية ذلك القرن ، وقال إن القلب هو المنظم الرئيسى للحياة ، ومركز النيوما أى النفس . وشرّح ديوقليس Diocles أحد أبناء بلدة كرستوس Carystus العوبية حوالى ٣٧٠ أرحام إناث الحيوان ، ووصف الأجنة البشرية من بداية اليوم السابع والعشرين إلى اليوم الأربعين من حياتها ، وتقدمت على يديه علوم التشريح والأجنة وأمراض النساء والولادة ، وأصلح إحدى الأغلاط اليونانية الشائعة بقوله إن « بذرتى » الذكر والأنثى تشتركان فى تكوين

الجنين[١٧] . وكانت امرأة تدعى أسپلزيا (غير أسپازيا أم الإسكندر) من أشهر الطبيبات فى أثينة فى القرن الرابع ، وذاع صيتها بمؤلفاتها فى أمراض النساء والجراحة وغيرها من فروع الطب[١٨] . وخشى إنياس تكتكوس Aeneas Tocticus الأركادى أن يؤدى تقدم الطب إلى إنقاص نسبة الوفيات أكثر مما تحتمله موارد الغذاء ، فنشر حوالى عام ٣٦٠ أول كتاب شهير فى فن الحرب ، وجاء نشره فى الوقت الذى استطاع فليب والإسكندر أن يفيدا مما ورد فيه من المعلومات .

obeikandl.com

الفصل الثانى

المدارس السقراطية

١ — أرستبوس

إذا كان العلم فى القرن الرابع لم يتجاوز الدرجة الوسطى من الرقى ، فقد كان هذا القرن عصر الفلسفة الذهبى . لقد بسط المفكرون الأولون آراء عامة ، فى نظام الكون ، وجاء السوفسطائيون فشكوا فى كل شىء عدا البلاغة ، وأثار سقراط آلاف الأسئلة ولم يجب عن واحد منها . أما الآن فقد نبتت البذور التى زرعت فى مائتى عام وصارت نظماً عظيمة فى بحوث ما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة . وكانت أثينة وقتئذ أفقر من أن تحتفظ للدولة بمصلحة طبية ، ولكنها رغم فقرها هذا أنشأت جامعات خاصة ، تأضحت بذلك « مدرسة هلاس » على حد قول إسقراط ، وحاضرة بلاد اليونان الذهبية ، والحكم الذى لا معقب لحكمه فى شئونها العلمية . ولما أن ضعف الفلاسفة الدين القديم أخذوا يكافحون لكى يجدوا فى الطبيعة وفى العقل بديلا من هذا الدين يكون دعامة للأخلاق وهاديا للناس فى سبيل الحياة .

وكان أول ما عملوه أن ارتادوا السبل التى فتحها لهم سقراط . ذلك أن السوفسطائيين كانوا قد ارتكسوا فاقتصروا فى الغالب على تدريس البلاغة ، وزالوا بوصفهم طبقة مستقلة ؛ ولهذا أصبح تلاميذ سقراط مركز عاصفة من الفلسفات الشديدة التباين . فقد أثار إقليدس الميغارى Eucleides of Megara ، الذى سافر إلى أثينة ليستمع إلى سقراط ، « عاصفة من الجدل » فى مسقط رأسه كما يقول تيمن الأثينى[١٩] ، وارتقى بنقاش زينون وسقراط فجعله

فناً من الجدل يرتاب فى كل نتيجة منطقية ، وأدى ذلك فى القرن التالى إلى نزعة بيرون وقرنيادس التشككية . وبعد أن مات إقليدس اتجه تلميذه النابه استلپون Stilpo بالمدرسة الميغارية شيئاً فشيئاً نحو النظرة الكلبية (Cynic) التى تقول : بما أن كل فلسفة يمكن دحضها ، فإن الحكمة لا تكون فى بحوث ما وراء الطبيعة ، بل فى الحياة البسيطة التى تحرر الفرد من الاعتماد فى رفاهيته على العوامل الخارجية . ولما سأل دمتريوس بليوقريطس Demetrius Poliorcetes بعد نهب ميغارا عن مقدار ما خسره أستلپون أجابه ذلك الحكيم بقوله إنه لم يك يملك شيئاً غير المعرفة ، وأن أحداً لم يغتصبها منه[٢٠] . وكان من بين تلاميذه فى آخر سنى حياته واضع أسس الفلسفة الرواقية ، ولذلك فإن من حقنا أن نقول إن المدرسة الميغارية قد بدأت بزينون واختتمت بزينون آخر .

وسافر أرستبوس الظريف بعد موت سقراط إلى مدن متفرقة ، وقضى بعض الوقت فى سلس Scillus مع أكسانوفون ، ووقتاً أطول من هذا مع لئيس Lais فى كورنثة[١٢] ، ثم ألقى عصا الترحال فى قورينة مدينته الأصلية القائمة على ساحل أفريقية . وكان ثراء الطبقات العليا فى هذه المدينة النصف الشرقية قد كونا عاداته ، فكان أكثر مما يتفق فيه مع مبادئ أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرستبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً فى الحديث ، فشق بهذه الصفات طريقاً له فى كل مكان . وتحطمت به سفينته قرب رودس واشتد عليه الفقر فيها ، فذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضى ، وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له هو وأصحابه جميع وسائل الراحة ؛ فلما فعلوا ذلك قال لهم إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن[٢٢] .

وكانت فلسفته بسيطة وصريحة ؛ قال : إن كل ما نفعله إنما نفعله طمعاً فى اللذة أو خوفاً من الألم — حتى إذا أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا ، أو ضحينا

بحياتنا من أجل قوادنا . وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هى الخير الذى لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى الفضيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء غير مؤكد ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون فى السعى وراء الحقيقة المجردة بل فى اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هى العقلية أو الأخلاقية ، بل هى اللذات الجسمية أو الحسية ، ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذى يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شىء آخر ، والذى لا يضحى بخير عاجل فى سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقبل إن لم يفقه ذلك . وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهى عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه فى الساعة التى نحن فيها[٢٣] . وليست فائدة الفلسفة فى أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها فى أنها تهدينا إلى أن نختار أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذى يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذى يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذائذ التى تعرضه للخطر ، والتى لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذى يظهر الاحترام المقرون بالفطنة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل بقدر ما يستطيع على « ألا يكون سيدا لإنسان ما أو عبداً له[٢٤] » .

وإذا كان يشرف الإنسان أن يعمل بما يدعو الناس إلى عماه فقد كان أنتسپوس خليقا ببعض هذا الشرف . فقد كان فى فقره وغناه على السواء سمحا كريما ، ولم يكن يتظاهر بالميل إلى إحدى الناحيتين . وكان يصر على أن يتقاضى أجراً على مايعلمه ، ولا يتردد فى أن يتملق الطغاة إذا كان فى هذا الملق مايوصله إلى أغراضه . وقد ابتسم ولم يتأفف حين بصق دنيسيوس الأول فى وجهه وقال : « إن من واجب الصياد أن يتحمل أكثر من هذا الماء ليمسك بسمكة

أصغر من التى أريدها[٢٥] » ولما أن لامه صديق له على ركوعه أمام دنيسوس أجابه بأنه ليس من عيبه هو أن تكون أذنا الملك فى قدميه » ، ولما سأله دنيسوس لم يلازم الفلاسفة أبواب الأغنياء ، ولا يلازم الأغنياء مجالس الفلاسفة ، أجابه بقوله : « ذلك بأن الأولين يعرفون ما يريدون أما الآخرون فلا يعرفونه[٢٦] » . ولكنه مع ذلك كان يحتقر من يطلبون المال لذاته . ومن ذلك أنه لما أن أراه سيموس Simus الفريجى الثرى بيتا له جميلا مفروشا بالرخام بصق أنتسپيوس فى وجهه ؛ فلما أن احتج عليه سيموس اعتذر بأنه لم يجد بين ذلك الرخام كله مكانا أليق من وجهه بالبصق عليه[٢٧] . ولما أن جمع من المال ما يريد أنفقه بسخاء على الطعام الشهى ، والكساء الجميل ، والمسكن الفخم ، والنساء الحسان (على ما كان يبدو له) . ولما أن لامه بعضهم على أنه يعاشر حظية أجابه بقوله إنه لا يعارض فى أن يعيش فى بيت سكنه آخر قبله أو أن يسافر فى سفينة سافر فيها غيره[٢٨] . ولما قالت له عشيقته : « إنى أعاشرك معاشرة الأزواج » قال لها : « إنك لا تستطيعين أن تقولى إننى أنا الذى أعاشرك ، كما لا تستطيعين أن تقولى بعد أن تخترق أجمة أية شوكة فيها خدشتك[٢٩] .

وقتله الناس رغم أنه كان رجلا شريفاً ، ظريفاً ، مهذبا ، مثقفا ، طيب القلب ، مشهوراً باسم سيموس اللطيف . وما من شك فى أن من أسباب دعوته السافرة للسعى وراء اللذة أنه كان يسر من التشهير بالكبار الفاسدين من أهل المدن . وقد كشف عن خليقته بتبجيل سقراط ، وحبه الفلسفة(*)، واعترافه بأن أجل منظر فى الحياة ، وهو منظر الرجل الفاضل الذى يشق طريقه مطمئنا واثقا من نفسه بين الأنذال[٣١] .

وقال وهو على فراش الموت (٣٥٦) إن أعظم تراث يتركه لابنته

(*) يقول أرستبوس إن مثل الذين يهملون الفلسفة فى تعليمهم « كمثل الذين جاءوا يخطبون پنلپى ؛ فقد ... وجدوا أن كسب الخادمات أسهل لهم من زواج السيدة[٣٠] » .

أريتى Arete هو أنه علمها ألا ترى قيمة ما لشيء تستطيع أن تستغنى عنه »[٣٢] وهو استسلام منه لديوجانس عجيب . وقد خلفته ابنته فى رياسة مدرسة قورينة وألفت أربعين كتاباً ، وكان لها تلاميذ ممتازون ، وحبّها مدينتها قبرية مشرفة هى : « ضياء هلاس [٣٣] » .

٢ — ديچين (ديوجانس)

ووافق أستانس على نتيجة هذه الفلسفة وإن لم يوفق على مناقشاتها ، واستخلص من أقوال سقراط نفسه فلسفة للحياة قائمة على التقشف . وكان مؤسس المدرسة الكلبية ابن مواطن أثينى وأمة تراقيا ، وحارب ببسالة فى يوم تنغارا عام ٤٢٦ ، ودرس زمنا مع غورغياس وپرودكوس ، ثم أنشأ بعدئذ مدرسته ، ولكنه بعد أن سمع مناقشات سقراط ، ذهب ومعه تلاميذه ليتلقى فلسفة الذى يفوقه سنا . وكان مثل أودكسوس يعيش فى پيرية ، ويسير إلى أثينة مشيا على قدميه كل يوم تقريباً . ولعله كان حاضراً حين كان سقراط (أو أفلاطون) يناقش خطيباً ظريفاً فى مشكلة اللذة .

سقراط : هل تظن أن الفيلسوف يجب أن يهتم بملذات . . . المأكل والمشرب ؟

سمياس : لا ، من غير شك .

سقراط : وما قولك فى لذات الحب — هل يجب عليه أن يهتم بها ؟ .

سمياس : لا ، يجب ألا يهتم بحال من الأحوال .

سقراط : وهل يجوز له أن يفكر فيما عدا ذلك من طرق المتعة الجسمية — كالحصول على الملابس الغالية ، أو الأحذية وما إليها من زينة الجسم ؟ أليس الواجب عليه ، بدل أن يعنى بهذه الأشياء ، أن يحتقر كل ما تتطلبه الطبيعة ؟ .

سمياس : من واجبى أن أقول إن الفيلسوف الحق هو الذى يحتقرها[٣٤]

هذا هو جوهر الفلسفة الكلبية : أن تقتصر حاجات الجسم على الضرورات المحضة حتى تكون الروح حرة قدر المستطاع . وقد استمسك أنتستانس بحرفية النظرية ، وأصبح كأنه راهب فرنسيسى يونانى بلا دين . وكان شعار أرستيوس هو : « إنى أملك ولكن أحداً لا يملكنى » أما شعار أنتستانس فقد كان : « إنى لا أملك حتى لا يمتلكنى أحد » . ولم يكن عنده مال[٣٥] ، وكان يرتدى ثوباً خلقا عيره به سقراط بقوله : « إنى أستطيع أن أرى غرورك يا أنتستانس من خلال ثقوب ثوبك[٥٥] » وإذا ضربنا صفحا عن هذا فقد كان عيبه الوحيد هو تأليف الكتب ؛ وقد ترك منها ثمانية ، أحدها تاريخ للفلسفة . ولما مات سقراط اضطلع أنتستانس بواجب تدريس الفلسفة لطالبيها واختار موضعاً لمحاضراته ساحة « كلب البحر للتدريب الرياضى » ، وكان سبب اختيارها أنها مخصصة لأفراد الطبقات الدنيا ، أو الغرباء ، غير الشرعيين ، وغلب اسم الكلبى على المدرسة بسبب مكان وجودها لا بسبب العقيدة التى تدرس فيها[٥٧] ، وكان أنتستانس يرتدى ثياب العمال ، ولا يتقاضى أجراً على قيامه بالتدريس ، ويفضل أن يكون تلاميذه من الفقراء ، ويطرد من مدرسته بلسانه أو عصاه كل من يعيش معيشة الفقراء ولا يتحمل شظف العيش .

وأبى فى أول الأمر أن يقبل ديچين ضمن تلاميذه ، فلما أصر ديچين وصبر على الإهانة ، قبله ، فأذاع التلميذ نظريات أستاذه فى جميع أنحاء هلاس بأن اتبع تعاليمه فى معيشته لا يحيد عنها قيد شعرة . لقد كان أنتستانس فى أصله نصف رقيق وكان ديچين رجلا مصرفياً مفلساً من سينوب ، اضطرته شدة الحاجة إلى التسول وسره أن يعلم أن هذا جزء من الفضيلة ، والحكمة ، فلبس أثواب المتسولين ، وحمل جرابهم وتوكأ على عصاهم ، وعاش وقتاً ما داخل قصعة فى ساحة معبد سيبيل فى أثينة[٣٨] . وكان يحسد الحيوان على حياته البسيطة ويحاول أن يحذو حذوه ، ينام على الأرض ، ويطعم مما يستطيع الحصول عليه أينما وجده ، ويؤكدون لنا أنه كان

يقضى حاجة الطبيعة ومراسم الحب على مراى من جميع الناس[٣٩] . ولما رأى طفلا يشرب الماء بيديه ألقى هو الآخر كوب الماء[٤٠] ؛ وكان فى بعض الأحيان يحمل شمعة أو مصباحاً ويقول إنه يبحث بهما عن رجل[٤١] . ولم يسئ فى حياته إلى إنسان ، ولكنه رفض أن يعترف بالقوانين ، وأعلن قبل الرواقيين بزمن طويل أنه مواطن عالمى (Kosmopolites) . وكان يطوف بالبلاد على مهل ، ونسمع أنه أقام بعض الوقت فى سراقوصة ، وقبض عليه القراصنة فى بعض أسفاره وباعوه عبداً لأكسنياديس صاحب كورنثة ؛ ولما سأله سيده عما يستطيع أن يؤديه من الأعمال قال : « إنه يستطيع أن يحكم الرجال » ، فاتخذه أكسنياديس مربياً لأبنائه ، ومشرفاً على شئون قصره ، وأحسن ديچين القيام بكلا العملين إحساناً جعل سيده يطلق عليه لقب « العبقرى الصالح » ، ويعمل بمشورته فى كل شىء . وظل ديچين يحيا حياته البسيطة لا يحيد عنها قط حتى أصبح بعد الإسكندر أشهر رجل فى بلاد اليونان .

وكان متصنعاً بعض الشىء ، وما من شك فى أنه كان يحب الشهرة ، وكان بارعاً فى الجدل ، ويقول سميه إنه لم يغلب قط فى مناقشة[٤٢] . وكان يصف حرية الكلام بأنها أعظم الطيبات ، وقد أفاد منها كثيراً هى والمزاج الخشن ، والفكاهة التى لم تكن تعجزه قط . وعنف ذات يوم امرأة تركع وتسجد أمام صورة مقدسة بأن سألها ؛ « ألا تخافين أن تكونى فى هذا الوضع وقد يكون من ورائك إله من الآلهة ، لأن الآلهة يملأون كل مكان[٤٣] ؟ » ، ولما رأى ابن حظية يرمى جماعة من الناس بحجر قال : « احذر أن تصيب أباك[٤٤] » . وكان يكره النساء ، ويحتقر من الرجال من يسلكون مسلك النساء ، من ذلك أن شاباً كورنثياً جاءه متعطراً متأنقاً فى ثيابه الغالية يسأله سؤالا فأجابه بقوله : « لن أجيبك عن سؤالك حتى تخبرنى : أولد أنت أم بنت[٤٥] ؟ » .

والعالم كله يعرف قصته مع الإسكندر حين التقى بالفيلسوف فى كورنثة

قائماً فى الشمس وقال له : « أنا الإسكندر الأكبر » ؛ وأجابه الفيلسوف بقوله : « وأنا ديچين الكلب » . وقال له الملك : « اسألنى أى شىء تريد » ، فأجابه : « ابتعد حتى لا تحجب عنى الشمس » . وقال الجندى الشاب : لو لم أكن أنا الإسكندر لتمنيت أن أكون ديچين[٤٦] » ؛ ولسنا نعرف أن ديچين قد رد على هذه التحية . ويراد منا أن نعتقد أن الرجلين توفيا فى يوم واحد من أيام عام ٣٢٣ الإسكندر فى بابل وهو فى سن الثالثة والثلاثين ، وديچين فى كورنثة بعد أن جاوز التسعين[٤٧] . وقد وضع الكورنثيون فوق قبره كلباً من الرخام ؛ وأقامت له سينوب التى نفته نصباً تذكارياً تخليداً لذكراه .

وليس ثمة شىء أوضح من الفلسفة الكلبية : فهى لم تعمد إلى المنطق إلا ريثما تدحض نظرية المعرفة التى كان أفلاطون يحير بها عقول العلماء فى أثينة ، كذلك كانت الميتافيزيقا فى نظر الكلبيين عبثاً عقيما ، وكانوا يقولون إن من واجبنا ألا ندرس الطبيعة لنفسر العالم بهذه الدراسة ، وهو أمر مستحيل : بل لنعلم حكمة الطبيعة ونسترشد بها فى الحياة . والفلسفة الوحيدة الحقة هى فلسفة الأخلاق ، والغرض من الحيـــاة هو السعادة ، ولكن هذه السعادة لا تكون فى طلب اللذة ، بل فى الحياة الفطرية البسيطة المستقلة قدر المستطاع عن المساعدات الخارجية ؛ ذلك أن اللذة ، وإن كانت عملا مشروعاً إذا أتت نتيجة كدح الإنسان وجهوده الخاصة ، ولم يعقبها شىء من الندم ووخز الضمير[٤٨] ، كثيراً ما تفلت منا أثناء السعى إليها ، أو تخيب رجاءنا فيها بعد أن ننالها ؛ ومن أجل هذا فإن الأخلق بنا أن نعدها شراً لا خيراً . والسبيل الوحيدة إلى السعادة الباقية هى أن يحيا الإنسان حياة معتدلة فاضلة . والثروة تفسد الطمأنينة والسلام ، والشهوة الحاسدة تأكل النفس كما يأكل الصدأ الحديد ، والاسترقاق عمل ظالم ولكنه ليس عملا خطيراً ؛ والرجل الحكيم يسهل عليه أن يجد السعادة فى الرق كما يجدها فى الحرية ، لأن حرية النفس هى الحرية الحقة . ويقول ديچين إن الآلهة

قد وهبت الإنسان الحياة السهلة المريحة ، ولكن الإنسان هو الذى عقدها بالتلهف على الترف . وليس معنى هذا أن الكلبيين كانوا شديدى الإيمان بالآلهة ، وشاهد ذلك أن قسيساً أخذ يعدد لأنتستانس ما يتمتع به المستمسكون بأسباب الفضيلة من خير كثير بعد وفاتهم ، فسأله الفيلسوف : « ولم إذن لا تموت ؟ »[٤٩] ، وكان ديجين يسخر من الطقوس الدينية الخفية ، ويقول عن القرابين التى قربها فى سمثريس من نجوا من الموت بعد أن حطمت سفينتهم : « لو أن هذه القرابين قد ة بها الذين هلكوا لا الذين نجوا لكانت أكثر من هذه عدداً »[٥٠] ، وكان كل شىء فى الدين عدا الاستمساك بالفضيلة يبدو للكلبيين أوهاما وخرافات ، وهم يرون أن جزاء الفضيلة يجب أن يكون هو الفضيلة نفسها ، وأن من الواجب ألا يكون هذا الجزاء موقوفاً على عدالة الآلهة . وقوام الفضيلة هو الأكل ، والتملك ، والحد من الرغبات قدر المستطاع ، والاقتصار على شرب الماء . وعدم الإساءة لأى إنسان : وسئل ديجين : وكيف يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أذى عدوه ؟ فأجاب بقوله : « بأن يثبت أنه شريف مستقيم »[٥١] . والشهوة الجنسية دون غيرها هى التى كانت تبدو للكلبيين غريزة معقولة ، وكانوا يتجنبون الزواج بوصفه رابطة خارجية ولكنهم كانوا يحمون البغايا . وكان ديجين يدعو إلى الحب الحر الطليق ، وإلى شيوعية الزوجات[٥٢] ، وكان أنستانس يطلب الاستقلال فى كل شىء ، ومن أجل ذلك كان يشكو من أنه لا يستطيع أن يشبع جوعه بمفرده كما يستطيع أن يشبع شهوته الجنسية على هذا النحو[٥٣] . وإذا كان الكلبيون قد قرروا أن الشهوة الجنسية شهوة سوية طبيعية كالجوع ، فقد أعلنوا أنهم لا يفقهون لم يخجل الناس من إشباع إحدى الرغبتين جهرة أمام الناس كما يشبعون الأخرى[٥٤] . ومن رأيهم أن الإنسان يجب أن يكون مستقلا فى كل شىء حتى فى الموت نفسه ،

فيختار لنفسه مكان موته وزمانه ؛ وعندهم أن الانتحار عمل مشروع ، ويقول بعضهم إن ديجين قتل نفسه بأن أمسك عن التنفس(٥٥) .

وكانت الفلسفة الكلبية جزءاً من الحركة التى تهدف إلى « الرجوع إلى الطبيعة » ، وهى الحركة التى قامت فى أثينة فى القرن الخامس رداً على ما أحدثته الحضارة المعقده من ملل فى النفوس وعدم توازن فى شئون الحياة . ذلك أن الناس ليسوا متحضرين بالفطرة ، وهم لا يحتملون قيود الحياة المنظمة ، إلا لأنهم يخشون مغبة العقاب والوحدة . وكانت الصلة بين ديجين وسقراط شبيهة بعض الشبه بالصلة التى بين روسو وڤلتير : فقد كان يرى أن الحضارة لا خير فيها ، وأن بروميثيوس قد استحق أن يصلب لأنه جاء بها إلى بنى الإنسان (٥٦) . وكان الكلبيون ، كما كان الرواقيون ، وكما كان روسو فى العصر الحديث ، يجعلون مثلهم الأعلى هو « الشعوب الطبيعية »(٥٧) ؛ وقد حاول ديجين أن يأكل اللحم النيئ لأن طهو الطعام عمل غير طبيعى(٥٨) ، ويظن أن أحسن المجتمعات هو المجتمع الخالى من أسباب الخداع ومن القوانين .

وكان اليونان يسخرون من الكلبيين ، ويصبرون عليهم صبر المجتمع فى العصور الوسطى على القديسين . وقد أصبحوا بعد ديجين هيئة دينية من غير دين ، اتخذوا الفقر قاعدة وأساساً لعقيدتهم ، وكانوا يعيشون من الصدقات ، وينفسون عن عزوبتهم بالشيوعية الجنسية ، وافتتحوا مدارس لتعليم الفلسفة . ولم تكن لهم بيوت ، بل كانوا يعملون وينامون فى الطرقات أو مداخل المعابد . وانتقلت العقائد الكلبية على أيدى استلبو Stilpo وأقراطيس Crates تلميذى ديجين إلى العصر الهلنستى ، وكانت فيه أساس الرواقية ، واختفت المدرسة بوصفها ذات كيان مستقل حوالى القرن الثالث ، ولكنها ظلت ذات أثر قوى فى التقاليد اليونانية ، ولعلها عادت

إلى الوجود فى شخص الأسينيين(*) فى بلاد اليهود ، والرهبان فى مصر ، فى أوائل عهد المسيحية . وليس فى مقدور العلماء أن يقرروا حتى الآن مقدار ما تأثرت به هذه الحركات كلها بأمثالها من حركات الطوائف المختلفة فى الهند أو ما كان للثانية من أثر فى الأولى . وإن الذين يدعون للرجوع إلى الطبيعة فى أيامنا هذه ، لهم الأبناء الذهنيون لأولئك الرجال والنساء الذين عاشوا فى بلاد الشرق أو اليونان فى الأيام الخالية ، والذين ملوا القيود الضيقة غير الطبيعية ، وظنوا أن فى وسعهم أن يعودوا إلى الحيوانات ويعيشوا بينها ؛ واعتقادنا أنه ليس ثمة حياة كاملة خالية من هذه اللوثة الحضرية ؛

(*) جماعة دينية قامت بين اليهود الأقدمين ، كان أعضاؤها يعيشون عيشة العزلة والتقشف وكانت الملكية عندهم مشاعة . (المترجم)

الفصل الثالث

أفلاطون

١ — المعلم

لقد تأثر أفلاطون نفسه بالمبادئ الكلبية . وشاهد ذلك أنه يصف فى المقالة الثانية من الجمهوريه[٥٩] مدينة فاضلة تعيش عيشة فطرية شيوعية ؛ ونستشف من هذا الوصف عطفه على هذه المدينة وحبه إياها . نعم إنه يكتفى بقبولها ولا يدعو إليها ، ويصور دولة « فى الدرجة الثانية بعدها » ، ولكنه حين يعمد إلى تصوير ملوكه — الفلاسفة نستشف فى هذه الصورة الحلم الكلبى ، فنجد رجالا لا أملاك لهم ولا زوجات ، يستمسكون بالحياة البسيطة والفلسفة الراقية ، قد استحوذوا على حصن أجمل خيال فى تاريخ اليونان . وكانت الخطة التى رسمها أفلاطون لإيجاد أرستقراطية شيوعية محاولة باهرة من رجل محافظ ثرى للتوفيق بين احتقاره للدمقراطية وبين مثالية زمانه المتطرفة .

وكان ينتمى إلى أسرة عريقة يرجع أصلها من ناحية أمه صولون ومن ناحية أبيه إلى ملوك أثينة الأولين ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أنها ترجع من هذه الناحية إلى بسيدن إله البحر[٦٠] . وكانت أمه أخت خرميدس Charmide وابنة أخ أفريتياس ، ومن أجل هذا يكاد كره الدمقراطية أن يكون متأصلا فى دمه . وقد سمى أرستقليس Aristocles — أى الأحسن الشهير — ، وبرع الشاب فى جميع نواحى الحياة تقريباً ، فنبغ فى الموسيقى ، والرياضيات ، والبلاغة والشعر . وافتتنت النساء ، والرجال بلاريب ، بجمال طلعته ؛ وصارع فى الألعاب البرزخية ، ولقبوه من قبيل السخرية فلاطون Platon أى العريض لامتلاء جسمه وقوة بنيته ؛ وحارب

فى ثلاث معارك ، ونال جائزة فى الشجاعة[٦١] . وكتب فكاهات شعرية وغزلا ، ومأساة رباعية(*) ؛ وبينما كان يتردد بين الشعر والسياسة لا يعرف أيهما يختار طريقاً له فى الحياة ، إذ افتتن وهو فى سن العشرين بسقراط ؛ وما من شك فى أنه كان يعرفه من قبل ، لأن الفيلسوف الكبير كان صديقاً لخاله خرميدس ؛ ولكنه لما بلغ هذه السن كان يستطيع أن يفهم تعاليم سقراط ويستمتع بمنظر الرجل الشيخ وهو يقذف بأفكاره فى الهواء كالبهلوان ، مرتكزاً على أسنة أسئلته . فما كان منه إلا أن أحرق قصائده ، ونسى يوربديز والألعاب الرياضية ، والنساء ، وتبع المعلم الشيخ كأنه سحره أو نومه تنويماً مغنطيسياً . ولعله كان يكتب مذكرات فى كل يوم . لأنه كان يشعر كما يشعر الفنان المرهف الحس بما سيكون لهذا الشيخ البطين المشوه المحبوب من شأن عظيم فى مستقبل الأيام .

ولما بلغ أفلاطون الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحافظين فى عام ٤٠٤ بقيادة جماعة من أقربائه ، وشهد أيام الإرهاب الألجركى العصبية ، وشجاعة سقراط فى تحدى الثلاثين ، وموت أقريتياس وخرميدس ، وعودة الدمقراطية ، ومحاكمة سقراط وموته ، وبدا العالم كله يتصدع ويتهدم حول هذا الشاب الذى كان من قبل لا يتطرق الهم إلى قلبه ؛ ففر من أثينة التى بدت فى نظره كأنها مأوى الشياطين ، ووجد بعض الراحة فى ميغارا فى بيت إقليدس ، ثم فى قورينا ولعله كان فيها مع أرستيوس . ويظهر أنه سافر منها إلى مصر حيث درس على الكهنة العلوم الرياضية والمعارف التاريخية الشعبية[٦٣] . ونراه مرة أخرى فى أثينة حوالى عام ٣٩٥ ، وبعد عام من ذلك الوقت حارب دفاعاً عن كورنثة . وبدأ أسفاره مرة أخرى حوالى عام ٣٨٧ ، ودرس فلسفة فيثاغورس مع أرخيتاس

(*) المأساة الرباعية مجموعة من أربع مسرحيات ، ثلاث مآس ورواية هجائية ، كانت تمثل مجتمعة فى عيد ديونيشس فى أثينة . (المترجم) .

فى تاراس ومع تيماوس فى لكرى ، ثم انتقل إلى صقلية ليشاهد بركان إتنا ، وارتبط برباط الصداقة مع ديون طاغية سراقوصة ، وقُدِّم لدنيسوس الأول ، وبيع بيع الرقيق ، ثم عاد سالماً إلى أثينة فى عام ٣٨٦ . ولما رفض أنسريس Anniceris الثلاثة الآلاف درخمة التى جمعها أصدقاؤه ليفتدوه بها ، ابتاع له هؤلاء الأصدقاء بهذا المال أيكة للتنزه فى ضواحى المدينة وأطلقوا عليها اسماً مشتقاً من إلهها المحلى أكديموس Academus[٦٢] ، وفيها أنشأ أفلاطون الجامعة التى قدر لها أن تكون فيما بعد مركز بلاد اليونان العقلى تسعمائة عام كاملة(*)

وكان المجمع العلمى (الأكاديمية) من الناحية الفنية إخوة دينية (ثاسيوس Thasios) مخصصاً لعبادة ربات الشعر والفن ، ولم يكن الطلاب يؤدون فيه أجوراً عن التعليم ، ولكنهم كانوا فى الغالب من أبناء الأسر الغنية ، ولذلك كان ينتظر من آبائهم أن يهبوا المعهد هبات قيمة . وفى ذلك يقول سويداس إن الأغنياء « كانوا يوصون قبل وفاتهم لأعضاء المدرسة بما يكفل لهم أن يحيوا حياة الفلاسفة غير مضطرين إلى العمل لكسب أقواتهم[٦٣] » . ويقال إن دنيسوس الثانى وهب المعهد ثمانين وزنة (٤٨٠٫٠٠٠ ريال أمريكى)[٦٤] — وفى هذا ما قد يفسر صبر الفيلسوف على هذا الملك ، وكان الشعراء الفكهون فى ذلك الوقت يهجون الطلاب بقولهم إنهم أشخاص متصنعون فى أخلاقهم متطرفون فى ملابسهم — ذوو قلانس رشيقة وعصى : وستر قصيرة أو أردية جامعية[٦٥]. ألا ما أقدم تقاليد إيتن والأثواب الجامعية السوداء ! وكانت النساء يقبلن فى المجمع مع الرجال ، لأن أفلاطون بقى من هذه الناحية متطرفاً فى

(*) ولم تكن هى أولى جامعات بلاد اليونان . ذلك أن مدرسة أقروطرنا الفيثاغورية كانت منذ عام ٥٢٠ تقدم مناهج دراسية مختلفة لمجتمع علمى متحد النزعة ، كما كانت مدرسة إسقراط قائمة قبل مجمع أفلاطون العلمى بثمان سنين .

أفكاره تطرفا جعله من أقوى أنصار المرأة ، وكانت أهم موضوعات الدرس هى العلوم الرياضية والفلسفة ، وقد كتب على المجمع هذا التحذير : « لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة » ؛ ولعل قدراً كبيراً من الحساب كان شروط القبول فى المجمع . وكان معظم ما حدث من التقدم فى العلوم الرياضية فى القرن الرابع على أيدى رجال ممن درسوا فيه . وكان منهاج الرياضة يشمل الحساب (نظرية العدد) والهندسة الراقية ، والفلك ، « الموسيقى » (ولعل هذه كانت تتضمن الأدب والتاريخ) ، والقانون ، والفلسفة[٢٦٦] ؛ وكانت الفلسفة الأخلاقية والسياسية آخر الدراسات فى هذا المنهاج ، هذا إذا كان أفلاطون قد أخذ بالنصيحة التى ينطق بها سقراط فى معرض الدفاع إلى حد ما عن أنيتوس وملاتوس :

سقراط : إنك تعرف أن ثمة مبادئ معينة فى العدالة والخير تعلمناها فى طفولتنا ، ونشأنا تحت رعايتها الأبوية ، نطيعها ونعظمها :

أجلوكون : هذا صحيح .

سقراط : وثمة أيضاً مبادئ مناقضة لها وعادات من أنواع السرور تملق أرواحنا وتجلبها إليها ، ولكنها لا أثر لها فيمن لديهم أى إحساس بالحق ، ومن لا ينقطعون عن إجلال تعاليم آبائهم وطاعتها .

أجلوكون : حق .

سقراط : فإذا كان الإنسان فى هذه الحال وسألته روحه السائلة . ما هو الشىء الجميل الشريف ؟ وأجاب بأن ذلك هو الذى يأمر به القانون ، فنقضت الحجج أقوال المشترع ، فاضطر إلى الاعتراف بأن لا شىء فيه من الجمال أكثر مما فيه من القبح ، أو فيه من العدالة والطيبة أكثر مما فيه من نقيضهما ، وإلى الاعتراف بأن هذا بعينه ينطبق على جميع آرائه التى خلع عليها الزمن جلالا وتعظيما ، إذا حدث هذا فهل تظن أنه سيظل يعظم هذه التعاليم ويطيعها ؟ .

أجلوكون : هذا مستحيل .

سقراط : وإذا لم يعد يظنها كما كان يظنها من قبل شريفة وطبيعية ، ثم عجز عن معرفة الحق ، فهل ينتظر منه أن يحيا حياة غير الحياة التى تتملق شهواته ؟

أجلوكون : ذلك ما لا ينتظر منه .

سقراط : وهل ينقلب بعدئذ من إنسان طائع للقوانين إلى إنسان خارج عليها ؟ .

أجلوكون : بلا ريب

سقراط : وإذن فلا بد من الحذر الشديد فى إدخال مواطنينا الذين لا يتجاوزون سن الثالثة والثلاثين فى الجدل . . . إذ يجب ألا يسمح لهم بتذوق هذه اللذة العزيزة قبل الأوان ؛ هذا شىء ينبغى تجنبه بنوع خاص ، لأن الشبان ، كما رأيت ، إذا تذوقوا الجدل بدءوا من فورهم يجادلون حبا فى الجدل ، ولا ينفكون يعارضون غيرهم ويدحضون حججهم تقليدا منهم لمن ينقضون حججهم هم ؛ فهم فى هذا أشبه بصغار الكلاب التى تسرها أن تشد أثواب كل من يقترب منها وتمزقها .

أجلوكون : نعم إن هذا هو الذى يسرها .

سقراط : وإذا ما غلبوا الكثيرين من الناس وغلبهم الكثيرون اندفعوا بسرعة وعنف إلى حال لا يؤمنون معها بأى شىء كانوا يؤمنون به من قبل ، ومن . . . ثم تسوء سمعة الفلسفة عند سائر الناس

أجلوكون : هذا هو عين الحق .

سقراط : ولكن الرجل إذا بدأ يكبر ، فإنه لا يرتكب هذا الضرب من الأعمال الجنونية ؛ بل يحذو حذو الرجل المنطقى الذى يبحث عن الحقيقة ، لا حذو الخصيم الذى يعارض لما يجده فى المعارضة من لذة ؛ وإن إجلال الناس لخلقه سيزيد من شرف هذا السعى بدل أنه ينقص منه(٧٦) .

وكان أفلاطون وأعوانه يعلمون الناس بالمحاضرات والحوار ، وبعرض

المسائل على الطلاب لحلها ؛ وكان من هذه المسائل إيجاد : « الحركات المنتظمة المتساوية التى يمكن بالاستناد إليها تعليل حركة الكواكب[٦٨] » ؛ ولعل أودكسوس وهرقليدس قد وجدا فى هذه البحوث ما يحفزهما إلى العمل . وكانت المحاضرات علمية ؛ وكانت فى بعض الأحيان مخيبة لآمال من جاؤوها طلبا للكسب المادى ، ولكن تلاميذ أرسطو ودمستين وليقورغ ؛ وهيبزيدس ، وأكسانوقراطيس تأثروا بها أعمق التأثر ونشروا فى كثير من الأحيان ما كتبوه عنها من مذكرات . وقال أنتفانس متفكها إن الكلمات التى كان ينطق بها أفلاطون أمام طلابه فى شبابهم لم يفهموها إلا فى شيخوختهم ، كما كانت الألفاظ فى إحدى المدن القائمة فى أقصى الشمال تتجمد حين تخرج من أفواه المتكلمين ثم تسمع فى الصيف حينما تسيح[٦٩] .

٢ — الفنان

يقر أفلاطون نفسه أنه لم يكتب فى حياته رسالة علمية[٧٠] ، ويشير أرسطوطاليس إلى ما كان يلقى من العلوم فى المجمع العلمى بقوله « تعاليم » أفلاطون « غير المكتوبة »[٧١] . ولسنا نعرف مدى اختلاف هذه التعاليم عما ورد فى المحاورات(*) ، وأكبر الظن أن هذه المحاورات كانت فى بادئ الأمر وسيلة للترويح عن النفس ، وأنها كانت تلقى بطريقة فكهة إلى حد ما[٧٢] . ومن سخريات التاريخ أن المؤلفات الفلسفية التى تدرس فى الجامعات الأوربية والأمريكية والتى تلقى فيها أعظم التقدير والإجلال فى هذه الأيام قد ألفت لتقرب الفلسفة من أذهان غير العلماء بربطها بإحدى الشخصيات المعروفة . ولم تكن محاورات أفلاطون أول ما كتب من الحوار الفلسفى ، فقد اتبع زينون الإليائى وكثيرون غيره هذه الطريقة ذاتها[٧٣] ، ونشر تيمن الأثينى قاطع الجلود بطريقة

(*) إن من فقرات فى كتب أرسطو ما يوحى بأنه كان يفهم أفلاطون وخاصة نظريته فى الأفكار على غير ما نفهمه نحن من المحاورات .

الحوار أحاديث سقراط التى كانت تدور فى حانوته[٧٤] . وكانت المحاورات كما أوردها أفلاطون قطعة أدبية لا تاريخية ؛ فهو لا يدعى أنه ينقل لنا نصا دقيقا للأحاديث التى كانت تجرى قبل أن يكتبها بثلاثين عاما أوخمسين ، بل ولا يدعى أنه يحرص على أن يكون ما فيها من إشارات منسقا غير متناقض بعضه مع بعض . وذهل غورغياس كما ذهل سقراط حين سمعا الألفاظ التى أنطقهما بها الفيلسوف المسرحى[٧٥] . وقد كتبت المحاورات مستقلة كل منها عن الأخرى ، ولعلها كتبت فى فترات متباعدة تباعدا طويلا ، وليس من حقنا أن نرتاع لما فيها من سهو ، كما ليس من حقنا أكثر من هذا أن نرتاع لما فيها من آراء متناقضة . وليس ثمة خطة موضوعة للتأليف بينها كلها وجعلها وحدة منسقة ، اللهم إلا البحث المتواصل الذى يقوم به عقل ينمو ويتطور تطوراً واضحا ملموساً عن الحقيقة التى لا يستطيع الحصول عليها أبداً[*] .

والمحاورات مركبة بمهارة وإن كانت لا ترقى إلى الدرجة الوسطى . وهى تصور الأفكار تصويراً مسرحيا ، وترسم صورة منسقة لسقراط تدل على حب أفلاطون الشديد له ؛ ولكنها قلما تدل على وحدة الأفكار أو تسلسلها ، وكثيراً ما تنتقل من موضوع إلى موضوع وتسئم القارئ فى كثير

(*) ليس فى وسعنا أن نحدد تواريخ المحاورات الست والثلاثين أو أن نصنفها تصنيفاً علمياً لا مطعن فيه . غير أن فى وسعنا أن نقسمها تقسيما منسقا إلى الأقسام الآتية : (١) مجموعة أولى وأهمها الأبولوجيا ، وأقريطون ، وليسيز ، وأيون ، وخرميدس ، وأقراطيلوس ، وأوطيفرون وأوتيدموس . (٢) ومجموعة وسطى وأهمها غورغياس ، وپروتاغوراس ، وفيدون ، ومعرض الآراء (سمپوزيوم) ، وفيدروس ، والجمهورية (٣) ومجموعة متأخرة وأهمها پرمنيدس ، وتيتياتوس ، والسوفسطائى ، والسياسى ، وفيلابوس ، وتيماوس وانقروانين . وأكبر الظن أنه ألف المجموعة الأولى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين من العمر ، والثانية قبل الأربعين ، والثالثة بعد الستين ، وأنه كان يخصص السنين التى بين كل مجموعة والتى تليها للمجمع العلمى .

من أجزائها لأنه يورد الحديث بمعناه لا بلفظه — فيجعل رجلا واحداً ينقل سائر أحاديث غيره من الناس . ويقول سقراط إن ذاكرته « غاية فى الضعف »(٧٧) ؛ ولكنه مع ذلك يتلو على صديق له عن ظاهر قلب أربعا وأربعين صفحة من نقاش جرى فى أيام شبابه بينه وبين پروتاغوراس . ومما يضعف معظم المحاورات أنها يعوزها المتكلمون الأقوياء القادرون على أن يردوا على سقراط « بغير نعم » أو ما فى معناها . ولكن هذه العيوب تختفى فى تألق اللغة ووضوحها ، وما فى الموقف ، والتعبير والفكرة من فكاهة ، والعالم الحى وما فيه من مختلف الشخصيات البشرية الحقيقية ، وما تفتحه هذه المحاورات من نوافذ توصل إلى العقل العميق النبيل . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه المحاورات من قيمة عظيمة عند الأقدمين ، وإذا ذكرنا أنها أكمل نتاج عقلى وصل إلينا من أى مؤلف يونانى ، وإن شكلها ليضعها فى تاريخ الأدب فى منزلة لا تقل سمواً على المنزلة التى يضعها فيها موضوعها فى تاريخ الفكر .

وأقدم المحاورات من خير الأمثلة فى جدل الشباب الخصيم الذى يندد به فى الفقرة التى أوردناها من قبل ، ولكن الصورة الساحرة التى تصور بها هذه المحاورات الشباب الأثينى تذهب بما فيها من عيوب من هذه الناحية . ومعرض الآراء هو خير ما كتب من نوعه فى أدب العالم كله ، وهو خير مقدمة لكتب أفلاطون ، وإن ما فيه من تصوير مسرحى للمناظر (ونورد على سبيل المثال قول أجاثون Agathon لخدمه : « تصوروا أنكم أرباب المنزل وأننى أنا وأصحابى ضيوفكم »(٧٨)) ، والصورة الحية التى رسمها لأرسطوفان « وقد تملكه الفواق من كثرة الأكل » وقصته المرحة عن ألقبيادس المثل الذى افتضح أمره بين الناس ، وأهم من هذا كله براعته فى التأليف بين الواقعية القاسية فى صورة سقراط وبين فكرته السامية عن الحب ، نقول إن هذه الصفات تجعل معرض الآراء آية أدبية رائعة فى فن النثر . أما الفيدون فأقل من معرض الآراء قوة وأكثر منه جمالا . فالنقاش الرئيسى فيه ، مهما يبلغ من الضعف ، نقاش أمين لا التواء فيه ولا مغالطة ، يبيح لصاحب الرأى

المخالف فرصة مكافئة لفرصة مناظره ، ويتدفق تدفقاً أكثر سلاسة وسط مناظر يتغلب هدوؤها على ما فيها من مآس ، حتى أن موت سقراط نفسه ليشبه اختفاء النهر عن العين حين يلتف عند أحد المنحنيات . ويدور بعض ما يشتمل عليه فيدروس من حوار على شواطئ نهر إيليسوس Illissus حين يبرد سقراط وتلميذه أقدامهما فى ماء النهر . ولا حاجة إلى القول بأن أعظم المحاورات كلها على الإطلاق هى الجمهورية لأنها أكمل عرض لفلسفة أفلاطون ، وهى فى أول أجزائها صراع مسرحى بين الأشخاص والآراء . والبارمنيدس أسوأ مثل للتلاعب المنطقى فى الأدب كله ، كما أنه أجرأ مثل فى تاريخ الفلسفة للمفكر الذى يفند أحب العقائد إلى نفسه — نعنى نظرية الأفكار — تفنيداً لا يقوى أحد على الرد عليه ودحض حججه . وفى المحاورات الأخيرة تضعف قدرة أفلاطون الفنية ، فتضمحل شخصية سقراط ؛ وتفقد الميتافيزيقا شعريتها ، وتفقد السياسة « مثل الشباب العليا » حتى إذا ما وصلنا إلى القوانين ، استسلم الرجل المتعب المنهوك القوى الذى ورث جميع ثقافة أثينة على اختلاف مناحيها إلى إغراء اسپارطة ، وطلق الحرية ، والشعر والفن والفلسفة نفسها .

٣ — الميتافيزيقى

لم يتبع أفلاطون فيما خلفه من أفكار خطة منظمة ، وإذا لخصنا نحن آراءه ووضعنا لها رؤوس موضوعات مختلفة كالمنطق ، وما وراء الطبيعية ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، والسياسة ، ليسهل علينا أن نتحدث عنها حديثاً منظماً ، فإن من الواجب أن نذكر أن أفلاطون نفسه كان شاعراً مغرقاً فى شاعريته إلى حد يمنعه أن يقيد أفكاره ويحدها بحدود . وإذ كان أفلاطون شاعراً فقد كان المنطق أكثر ما يعترض سبيله من الصعاب ، فهو يجول هنا وهناك يبحث

عن التعاريف ويضل السبيل فى التشبيهات التى تعرضه لأشد الأخطار ؛ « ثم دخلنا فى تيه ، ولما حسبنا أننا قد وصلنا إلى آخره ، رأينا أنفسنا مرة أخرى فى بدايته ، وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج[٧٩] » ، ويختم حديثه هذا بقوله : « ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلوم علم كالمنطق[٨٠] ». ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى . فهو يفحص عن طبيعة اللغة ويقول إنها مشتقة من محاكاة الأصوات[٨١] ؛ ويبحث فى التحليل والتركيب ، والتشبيهات والمغالطات ، ويقبل الاستقراء ، ولكنه يفضل الاستدلال[٨٢] ؛ ويضع فى هذه المحاورات الشعبية نفسها مصطلحات فنية ، كالجوهر ، والطاقة ، والفعل والانفعال ، والتوليد ، وهى المصطلحات التى استخدمتها الفلسفة فيما بعد . وهو يضع أسماء لخمس من المقولات العشر التى أذاعت شهرة أرسطوطاليس . وهو يرفض قول السوفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس الأشياء جميعها » ؛ ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساويا فى قيمته لما يقوله أى نائم ، وأى مخبول ، أو أى قرد[٨٣] .

واسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضا من التغيرات الهرقليطية ؛ ولو لم تكن إلا إحساسات ، لما كانت لدينا قط معلومات أو حقائق ؛ ذلك أن المعلومات لا تأتى إلا عن طريق الأفكار ، وعن طريق الصور المعممة ، والأشكال التى تصوغ فوضى الإحساسات وتكون منها التفكير المنظم[٨٤] . ولو كنا لا ندرك إلا الأشياء المفردة لكان التفكير مستحيلا ، ذلك أننا نتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما بينها من أوجه الشبه ، ثم نعبر عن الصنف بأجمعه باسم عام له ، فلفظ رجل يمكننا من أن نفكر فى جميع الرجال ، ولفظ منضدة يمكننا من التفكير فى جميع المناضد ، ولفظ ضوء فى جميع الأضواء التى سطعت فى البر أو البحر . وليست هذه الآراء (eida و ideai) أشياء تدركها الحواس ، ولكنها حقائق تعرف بالتفكير ، لأنها تبقى ، ولا تتغير ، ولو انعدمت

جميع الموجودات الحسية المقابلة لها . فالرجال يولدون ويموتون ، ولكن « الرجل » يبقى . وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلثاً ناقصاً ، يفنى عاجلا أو آجلا ، ومن أجل هذا فهو غير حقيقى نسبياً ، ولكن « مثلث » — أى الشكل والقانون اللذين ينطبقان على جميع المثلثات — كامل سرمدى(٨٥) . وكل الأشكال الرياضية أفكار سرمدية وكاملة(*) ، وكل ما تقوله الهندسة عن المثلثات ، والدوائر ، والمربعات والمكعبات ، والكرات ، يبقى صحيحاً ، ومن ثم فهو « حقيقى » ولو لم توجد هذه الأشكال فى العالم المادى فى الماضى أو فى المستقبل . والمعانى المجردة هى الأخرى حقيقة بهذا المعنى ؛ فالأعمال الفردية الفاضلة قصيرة الأجل ولكن الفضيلة تبقى حقيقة خالدة فى التفكير ؛ وأداة للتفكير ؛ وهذا أيضاً شأن الجمال ، والكبر ، والمشابهة وما إليها(٨٧) . فالأعمال والأشياء الفردية أشياء وأعمال بالصورة التى نعرفها بها ، لأنها تشترك فى هذه الأشكال الكاملة أو الأفكار ، وتحقق وجودها بدرجة قليلة أو كثيرة . وعالم العلم والفلسفة لا يكون من أشياء مفردة ، بل يتكون من أفكار(**) (٨٨) ؛

(*) ولقد حاول أفلاطون فى سنيه الأخيرة أن يبرهن على عكس نظرية فيثاغورس ، أى أن الأفكار جميعها صور رياضية(٨٦) .

(**) وازن بين هذا وبين قول كرل : « إن الأفكار وحدها عند العلماء المحدثين ، كما هى عند أفلاطون ، هى الحقائق(٨٩) » . وانظر ايضا قول اسبنوزا : « لست افهم من قولهم تتابع العلل والمعلولات الحقة ، ان هناك سلسلة من الأشياء الفردية المتغيرة ؛ وليس ذلك فقط لأن عددها يخطئه الحصر ، بل لأن ... وجود الأشياء المعينة لا صلة بينه وبين جوهر هذه الأشياء ، وليس هو حقيقة ازلية » (لكى تكون هندسة المثلثات حقيقية ، ليس من الضرورى أن يوجد أى مثلث خاص) . « على أنه ليس من الضرورى أن نفهم سلسلة الأشياء الفردية المتغيرة ، لأن جوهرها ... لا يوجد إلا فى الأشياء الثابتة الأزلية ومن القوانين المسجلة فى هذه الأشياء ، والمكونة لشرائعها الحقة التى بمقتضاها صنعت ورتبت(٩٠) » . ويلاحظ القارئ أن هرقليطس وبارمنيدس يتفقان مع أفلاطون فى نظريته الخاصة بالأفكار : فهرقليطس إذن على حق ، وتتابع الأشياء حقيقى فى عالم الحواس ؛ كما أن بارمنيدس على حق والوحدة التى لا تتبدل حقيقة فى عالم الأفكار .

والتاريخ المتميز عن السِّيَر هو قصة الإنسان ، وليس علم الأحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها ، وليست العلوم الرياضية هي دراسة الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد ، والعلاقة ، والشكل ، مستقلة عن الأشياء نفسها ، ولكنها تصدق على جميع الأشياء . والفلسفة هي علم الأفكار .

وكل شيء فى ميتافيزيقية أفلاطون يدور حول نظرية الأفكار . فالله المحرك الأول الذى لا يتحرك ، أو روح العالم(٩١) ، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية ، وهى الأفكار التى لا تتبدل والتى تكون ، على حد قول أصحاب الأفلاطونية الحديثة ، الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقل الله . وأرقى الأفكار هو الخير ، ويرى أفلاطون فى بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه(٩٢) ، ولكنه فى أكثر الأحيان هو أداة الخلق المادية المرشـــدة ، والشكل الأعلى الذى تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذى يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبتغيها المعرفة(٩٣) . وليست الحركة وعملية الخلق عمليتين آليتين بل هما تحتاجان فى العالم ، كما نحتاج نحن ، إلى روح أو مبدأ حيوى يكون هو قوتهما المنشئة المبدعة(٩٤) .

وليس شيء حقيقياً إلا الذى فيه قوة(٩٥) ، ومن أجل هذا فإن المادة ليست حقيقة أساسية (to me on) بل هى مجرد مبدأ من القصور الذاتى ، وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلا خاصا وكيانا حسب فكرة من الأفكار . والروح هى القوة المتحركة بنفسها الموجودة فى الإنسان ، وهى جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة فى الأشياء جميعها(٩٦) . وهى قوة حيوية خالصة ، مجردة من الجسم ، وخالدة . وقد وجدت قبل الجسم ، وجاءت معها من حاولها فى أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة . ولنضرب لذلك مثلا الحقائق

الرياضية. فهى بأجمعها فطرية بهذه الطريقة ، وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التى عرفتها الروح فى حيواتها الكثيرة الماضية[٩٧] . وإذا مات الإنسان انتقل روحه أو مبدأ الحياة الذى فيه إلى كائنات عضوية أخرى أرقى منه أو أحط حسب ما استحقته فى تجسداتها السابقة . وربما ذهبت الروح المذنبة إلى المطهر أو الجحيم ، وذهبت الروح الفاضلة إلى جزائر المباركين[٩٨] . فإذا ما تطهرت الروح فى خلال الحيوات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية(*) [٩٩] .

٤ — العالم الأخلاقى

لقد كان أفلاطون يعرف أن كثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين ، ودليلنا على هذا أنه قضى بعض الوقت يحاول وضع قانونى أخلاقى طبيعى يبعث فى نفوس الناس الرغبة فى الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطهر والجحيم[١٠١] ؛ وإن المحاورات التى كتبها فى حياته الوسطى لتتحول شيئاً فشيئاً من الميتافيزيقا إلى الأخلاق والسياسة « إن أعظم أنواع الحكمة وأجلها هى الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والأسر[١٠٢] » .

والمشكلة الرئيسية فى علم الأخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعى . ويعرض أفلاطون هذه المشكلة عرضاً واضحاً ويورد على لسان كلياس Callias من الحجج التى تبرر الأنانية ما لا يقل عن أقوى الحجج التى أوردها أى داعية لمخالفة القواعد الخلقية فى عصر من العصور[١٠٣] . وهو يعترف بأن كثيراً من اللذائذ لا عيب فيه ولا إثم ،

(*) يصعب علينا أن نحكم عن مقدرا ما فى هذه العقيدة ، عقيدة الخلود ، الهندية — الفيثاغورية — الأورفية من تصوير متعمد يهدف إلى حماية الناس من الزلل . ويعرضها أفلاطون عرضاً فكهاً ، كأنها فى نظره لا تعدو أن تكون أسطورة نافعة ، او عوناً شه يا على الخلق الطيب .

وأن الإنسان فى حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة ، وأن من الواجب أن تربى فى الطفل عادة الاعتدال وإدراك « الأواسط الذهبية للأمور » خشية أن يأتى الذكاء متأخراً بعد فوات الوقت(١٠٤) .

وتتكون النفس أو أصل الحياة من ثلاث درجات أو أجزاء — الشهوة ، والإرادة ، والفكر ، ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة — الاعتدال والشجاعة ، والحكمة ؛ ويجب أن تضيف إليها التقوى والعدالة — وأداء واجب الإنسان نحو والديه وآلهته . ويمكن تعريف العدالة بأنها هي تعاون الأجزاء فى الكل ، أو العناصر فى الأخلاق ، أو الأهلين فى الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق به على الوجه الأكمل(١٠٥) . وليس الخير هو الفعل وحده أو اللذة وحدها ، بل هو امتزاجهما بنسب ومقادير تنتج منها حياة الفعل(١٠٦) . والخير الأسمى كائن فى العلم الخالص بالأشكال والقوانين السرمدية ، و « أسمى خير » من الناحية الأخلاقية « ... هو ما فى النفس من قدرة أو موهبة ، إذا كان ثمة شيء من هذا النوع تستطيع به أن تعرف الحقيقة ، وأن تفعل كل الأشياء من أجل الحقيقة(١٠٧) ؛ ومن يحب الحقيقة لا يهمه أن يجزى الإساءة بالإساءة(١٠٨) » ، بل يفضل أن يتحمل على أن يرتكب هو الظلم ، و « يضرب فى الأرض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سبيلا إليهم ، والذين لا تُقَوِّم صحبتهم بالمال أيا كان ... والذين يهبون أنفسهم للفلسفة بحق يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، أحسوا بأن من واجبهم ألا يقاوموا تأثيرها فيهم ؛ ومن أجل ذلك يميلون نحوها ، ويسيرون خلفها للهدف الذى تقودهم إليه(١٠٩) » .

وكان أفلاطون قد حرق قصائده وفقد عقائده الدينية ولكنه ظل مع ذلك شاعراً وعابداً ؛ يغمر فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمال وتقوى ممتزجة

بالزهد والتقشف ؛ توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الأخلاق بحاسه الجمال . ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة . وكان فى دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر اللذين قد ترى الحكومة أن فيهما نزعة مغايرة للأخلاق الفاضلة أو الوطنية ، وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛ وحتى شعر هومر نفسه — الذى يصور الدين المغاير للأخلاق تصويراً مغرياً — يجب أن يضحى به . وكان يجيز فى هذه الدولة المثالية أساليب الموسيقى الدُّورية والفريجية ؛ ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون « أصواتا وحشية » فى أثناء عرضهم الفنى[١١٠] ، أو يدخلون فيها بدعا متطرفة .

« يجب الابتعاد عن إضافة أى نوع جديد لأنواع الموسيقى ، لأن هذا يعرض الدولة كلها للخطر ؛ وسبب ذلك أن الأنماط الموسيقية إذا اضطربت أثرت حتما فى أهم الأنظمة السياسية . . . ذلك أن النمط الجديد يتأصل فى الدولة تدريجا ، ويتطرق شيئاً فشيئاً إلى أخلاق الناس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والدساتير ، ويظهر فى هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهى الأمر بقلب كل شىء فى الدولة رأساً على عقب[١١١] .

والجمال كالفضيلة إنما يكون فى اللياقة ، والتناسب ، والنظام . والعمل الفنى يجب أن يكون مخلوقا حيا ، ذا رأس ، وجذع ، وأطراف ، توحدها وتبعث فيها الحياة ، فكرة واحدة[١١٢] . ويظن هذا المتزمت المتحمس أن الجمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم ، وأن الأشكال الهندسية ذات جمال سرمدى مطلق ، وأن القوانين التى تقوم عليها السموات تفوق النجوم فى جمالها[١١٣] . والحب هو طلب الجمال ويتألف من ثلاث مراحل أولاها حب الجسم والثانية حب الروح والثالثة حب الحقيقة . وحب الجسم بين الرجل والمرأة مشروع لا إثم فيه لأنه وسيلة للتناسل الذى هو نوع من أنواع الخلود[١١٤] ؛ ولكنه مع ذلك صورة بدائية من

الحب غير جديرة بالفيلسوف . والحب الجسمى بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لأنه يعطل التناسل(١١٥) . وقمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أى المرحلة الروحية من مراحل الحب : فني هذه المرحلة يحب الرجل الكبير السن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الطاهر السرمدى ، والشاب يحب الشيخ لأن حكمته تيسر له سبيل الفهم والشرف . ولكن أسمى أنواع الحب هو « حب الاستحواذ على الخير الأبدى » وهو الحب الذى يسعى وراء الجمال المطلق للأفكار أو الأشكال الكاملة السرمدية(١١٦) . وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأة هو « الحب الأفلاطونى » ، وهو النقطة االتى يتحدث عندها أفلاطون الشاعر مع أفلاطون الفيلسوف فى الرغبة القوية فى الفهم ، وتكاد هذه الرغبة أن تكون شغفا صوفياً بما فى القانون وما فى بناء العالم وحياته وغايته من نور النعيم الباهر .

لأن أديمنتس ، الذى لا يتحول عقله عن الوجود الحق لا يجد لديه وقتاً يطل فيه على شئون الناس ، أو يمتلئ فيه قلبه حسداً وغلا من النزاع معهم ؛ ذلك أن عينه تتجه على الدوام نحو المبادئ الثابتة التى لا تتبدل ، وهى التى لا يؤذى بعضها بعضاً ، بل يراها كلها تتحرك فى نظام حسب قوانين العقل ؛ فهو يحذو حذو هذه المبادئ ، وعلى مثالها يشكل حياته قدر المستطاع (١١٧) » .

٥ — الطوباوى

ولكنه مع هذا يهتم بشئون الناس ، وتتمثل أمام ناظريه رؤيا اجتماعية أيضاً ، ويحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والفقر والظلم والحروب . وقد روعه ما كان يسود أثينة من انقسامات حزبية مريرة « وشقاق ، وعداء ، وحقد ، وريبة ، لا تكاد تخبو نارها حتى تعود إلى الاشتعال »(١١٨) . وكان يحتقر الجركية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الأسر الشريفة ذات المجد التليد ،

ويقول عن رجالها إنهم « رجال الأعمال . . . الذين لا تطاوعهم نفوسهم إلى رؤية من قضوا عليهم بجشعهم ، ويدفعون سمومهم — أى ما لهم — فى جسم كل من لا يحْذَرهم ، ثم يستردون ما أخذوه منهم أضعافاً مضاعفة : وتلك هى الطريقة التى يملأون بها الدولة بالكسالى والمعدمين »(١١٩) « ثم تنشأ الدمقراطية ، بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم ، فيقتلون بعضهم ، وينفون من البلاد البعض الآخر ، ثم يمنحون الباقين أقساطاً متساوية من الحرية والسلطة »(١٢٠) . ويتضح آخر الأمر أن الدمقراطيين لا يقلون فساداً عن الحكام الأثرياء : فهم يستخدمون القوة التى تؤول إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الأموال العامة على الفقراء ، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم ؛ وهم يتملقون العامة ويداهنونهم حتى تنقلب الحرية فوضى ، وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ؛ وكما أن السعى الجنونى وراء المال يقضى على الحكم الأجركى ، كذلك يقضى على الدمقراطية التطرف فى الحرية .

سقراط : ففى مثل هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد ، وينتهى الأمر بانتقال عدواها إلى الحيوانات . . . فيتعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه . . ويتعود الابن أن يضع نفسه فى مستوى أبيه ، فلا يخشى أبويه ، ولا يستحى منهما . . . ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ، ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم . . . ويصبح الكبار والصغار سواسية ، فيضع الشاب نفسه فى مستوى الشيخ ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان . ومن واجبى ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر فى علاقتهما بعضهما ببعض . . . والحق أن الخيل والحمير ، لن تعدم وقتئذ سبيلا للسير مع الناس جنباً إلى جنب ، والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقوق وكرامات . . وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أتخمت بالحرية . . .

أديمنتس : ولكن ما هى الخطوة التالية ؟ ...

سقراط : إن ازدياد أى شىء فوق حده كثيراً ما يؤدى إلى انقلاب فى الاتجاه المضاد له ... ولهذا يبدو أن الإفراط فى الحرية ، سواء كان ذلك من ناحية الأفراد أو من ناحية الدول ، لن يؤدى إلا إلى الاستعباد ... ونرى أن أشد أنواع الحكومات استبداداً تنشأ من أشد أنواع الحرية تطرفاً .

وإذا ما صارت الحرية تحللا من كل القيود ، فقد اقتربت الدكتاتورية . ذلك أن الأغنياء يخشون وقتئذ أن تجردهم الدمقراطية من مالهم فيأتمرون بها ليقضوا عليها[١٣٢] ، وقد يغتصب السلطة أحد الأفراد المغامرين ، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ، ويحيط نفسه بجيش خاص به ، ويقتل أولا أعداءه ثم يتبعهم بأصدقائه ، حتى يطهر الدولة ، من هؤلاء وأولئك ، ويقيم حكومة دكتاتورية[١٣٣] . وفى هذا الصراع العنيف بين الآراء المتطرفة يكون الفيلسوف الذى ينادى بالاعتدال والتفاهم أشبه « برجل وقع بين الوحوش »؛ فإذا كان حكيما « احتمى بجدار حتى تمر العاصفة والريح الهوجاء »[١٣٤] .

ومن العلماء من يلجئون فى هذه الأزمات إلى الماضى ، ويشتغلون بكتابة التاريخ ، أما أفلاطون فيلجأ إلى المستقبل ؛ ويضع نظام المدينة الفاضلة ، ويرى أن أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بأن نجرى التجارب على شعبه ، وواجبنا الثانى هو أن نبعد من هذه المدينة جميع الكبار فلا نستبقى منهم إلا من لا غنى عنهم لحفظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضى . ثم نعد الشباب رجالا كانوا أو نساءً منهجا تعليمياً يمد إلى عشرين عاما ، ويشمل تعليم الأساطير ، وهو لا يقصد بها أساطير الدين القديم الفاسدة ، بل أساطير جديدة تعود النفس طاعة الآباء والدولة(*) . فإذا قضوا فى التعليم هذه المدة وضعت لهم اختبارات جسمية وعقلية وأخلاقية . فأما الذين يخفقون

(*) أى أن أفلاطون يحكم بأن القانون الأخلاق الطبيعى يكفى بمفرده .

فى هذه الاختبارات فيصبحون هم رجال الاقتصاد فى الدولة — رجال الأعمال، والصناع ، والزراع ؛ ويسمح لهؤلاء بأن تكون لهم أملاك خاصة، وأن يكونوا على درجات مختلفة فى الثراء (داخل حدود معينة) حسب كفاياتهم ، على أنه لا يسمح بوجود العبيد . أما من يجتازون هذا الاختبار الأول فيتلقون منهاجاً آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يختبرون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ؛ فأما الساقطون فيصبحون جنوداً ، لا يسمح لهم بأملاك خاصة ولا يشتغلون بالأعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون فى شيوعية عسكرية . وأما الذين يجتازون الاختبار الثانى فيبدأون فى ذلك الوقت (لا قبله) دراسة « الفلسفة الإلهية[١٣٥] مدة خمس سنين . وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات إلى منطق إلى سياسة وقانون . فإذا أتموا فى هذه الدراسة النظرية خمسة وثلاثين عاما ، ألقوا فى الحياة العملية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم . وبعد خمسين عاما يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ، ولكنهم لا تكون لهم أملاك . ولن تكون للمدينة قوانين ، بل تعرض كل القضايا والمنازعات على الملوك — الفلاسفة ليفصلوا فيها بحكمتهم التى لم تفسدها السوابق . ولكن يكون لهؤلاء الملوك — الفلاسفة ملك ولا مال ، ولا أسر ، ولا زوجات يختصون بهن على الدوام ، وذلك لكيلا يسيئون استخدام سلطتهم . ويتولى الشعب التصرف فى أموال المدينة كما يتولى الجند السلطة العسكرية . وليست الشيوعية عند أفلاطون نوعا من الدمقراطية ، بل هى أرستقراطية ، يعجز عن بلوغها عامة الشعب ، ولا يحتملها إلا الجنود والفلاسفة .

أما الزواج فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقات تنظيما دقيقاً يهدف إلى غرض مقدس هو تحسين النسل ؛ « فيجب أن يجتمع أفضل الجنسين بعضهما ببعض أكثر ما يستطيعون ، وأن يجتمع المنحطون من الرجال بالمنحطات من النساء ،

ثم يربى أبناء الأولين ولا يربى أبناء الآخرين ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة للاحتفاظ بالشعب فى حالة صالحة »[١٣٦] وعلى الدولة أن تتولى تربية الأطفال جميعهم وتقدم لهم فرصاً للتعليم متكافئه . ويجب ألا تكون الطبقات وراثية ، وأن يكون للبنات من الفرص مثل ما للأولاد ، وألا تمنع النساء من تولى مناصب الدولة لأنهن نساء . ويعتقد أفلاطون أنه بهذا المزيج من الفردية والشيوعية ، وبالعمل على تحسين النساء ، ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق ، يستطيع أن يوجد مجتمعاً يسر الفيلسوف أن يعيش فيه . ويختم بحثه بالعبارة الآتية : « وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكا ، أو أن يتشبع ملوك هذا العالم وأمراؤه بروح الفلسفة وقوتها . . . لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشرى من الشر »[١٣٧] .

٦ — المشترع

وظن أنه وجد فى دنيسوس الثانى الأمير المطلوب . وكان يشعر كما يشعر ڤلتير أن الملكية المطلقة تمتاز من الدمقراطية بأن المصلح فى الحالة الأولى لا يحتاج إلى إقناع أكثر من رجل واحد[١٣٨] . وفى ذلك يقول إنك إذا أردت أن تنشئ دولة صالحة فما « عليك إلا أن تضع على رأسها حاكما بأمره ، شاباً معتدلا ، سريع التعلم ، قوى الذاكرة شجاعا ، كريم الطبع . . . حسن الحظ ؛ ويكون حسن حظه فى أنه معاصر لمشترع عظيم ، وأن الظروف الموفقة تجمع أحدهما إلى الآخر »[١٣٩] لكن اجتماعه بدنيسوس كان كما سبق القول من أسوأ الظروف .

وكان أفلاطون فى آخر سنى حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشترعا ، ولذلك عرض على الناس دولة تلى الدولتين السابقتين فى الحسن ، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة فى كتاب القوانين ، وهذا أقدم المراجع الأوربية المعروفة فى التشريع ، وهو إلى هذا دراسة نافعة فى عهد الشيخوخة

اليونانى الذى أعقب عهد الشباب الإبداعى . وفيه يقول أفلاطون إن الدولة الجديدة ينبغى أن تكون فى داخل الأرض ، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الأجنبية إيمانها ، والتجارة الأجنبية أمنها ، والترف الأجنبى بساطتها وانطواءها على نفسها(١٣٠) . ويجب أن يقتصر عدد مواطنيها الأحرار على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم أفراد أسرهم . ويختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارساً يقسمون إلى جماعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصاً يتولون تصريف أعمال الدولة شهراً واحداً ، ويختار الحراس الثلثمائة والستون مجلساً ليلياً مؤلفاً من ستة وعشرين عضواً يجتمع فى الليل ويشرع لكل شئون المدينة الحيوية(١٣١) . ويجب على هؤلاء الأعضاء أن يقسموا الأرض بين أسر المواطنين أقساماً متساوية على ألا يسمح لهؤلاء الملاك بتقسيمها بعدئذ ولا بالنزول عنها لغيرهم . وعلى الحراس « أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حتى لا يضر المطر بالأرض بدل أن ينفعها . . وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق ، ويجعلوا قنوات » الرى « توصل الكثير من الماء لجميع الأراضى حتى الأراضى الجافة »(١٣٢) . ويجب ألا تزيد التجارة على الحد الأدنى حتى لا ينشأ من هذا عدم المساواة الاقتصادية . ويجب ألا يحتفظ الناس بشىء من الذهب أو الفضة ، وألا يتعاملوا بالربا(١٣٣) ، وألا يشجع أى إنسان على أن يعيش باستثمار أمواله ، بل يشجع على أن يعيش بالاشتغال بزرع الأرض بجد ونشاط . ويجب على كل من يحصل من ريع الأرض على أربعة أمثال قيمة أن يرد الباقى إلى الدولة . وقد قيد حق التوريث والوصية بأشد القيود(١٣٤) وجعل للنساء فرصا تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال(١٣٥) ، وفرض على الرجال أن يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وإلا ألزموا بدفع غرامات سنوية باهظة(١٣٦) ، وعليهم ألا يلدوا أطفالا إلا فى خلال عشر سنين . ومن الواجب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على أخلاق الشعب(١٣٧) .

وللوصول إلى هذا كله فى هدوء وسلام يجب أن تشرف الدولة إشرافا تاما على شئون التعليم ، والنشر ، وغيرهما من وسائل تكوين الرأى العام ، وأخلاق الأفراد ، ويجب أن يكون أكبر موظف فى الدولة هو وزير المعارف . ويجب أن تحل السلطة محل الحرية فى شئون التعليم ، وذلك لأن ذكاء الأطفال أقل من أن يجيز لنا أن نتركهم يختطون لنفسهم حياتهم . ويجب ألا تفرض الرقابة على الآداب ، والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى أعضاء المجلس أنها ضارة بالآداب العامة أو الخلق القويم . وإذ كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتأييدها فإن الدولة هى التى تقرر أى الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد . وكل من يتردد فى الخضوع لهذا الدين الرسمى يسجن ، فإن أصر على عدم الخضوع له وجب أن يقتل(١٣٨) .

وليست الحياة الطويلة نعمة لصاحبها على الدوام . ولقد كان من الخير لأفلاطون أن يموت قبل أن يوجه هذه التهمة لسقراط ، وأن يمهد هذا التمهيد لجميع محاكم التفتيش المستقبلة . ولعل دفاعه عن نفسه هو أنه يحب العدالة أكثر من حبه للحقيقة ، وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب . وأنه لا يستطيع أن يمحوهما إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة ، وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين . وكان يظن أن ما أصاب الأثينيين من انحلال أيونى فى الأخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسپارطية المشتقة من النظام الدورى . والنزعة السارية فى تفكير أفلاطون كله هى خوفه من أن يساء استخدام الحرية ، وأن يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شئون الناس والمنظمة للفنون . ويعرض أفلاطون فى كتاب القوانين تسليم أثينة المحتضرة التى استوفت حياتها لاسپارطة التى قضت نحبها من أيام ليقورغ ، وإذا لم يكن فى وسع أشهر فلاسفة أثينة أن يقول أكثر مما قال دفاعا عن الحرية . فمعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على أتم استعداد لأن يتولى أمورها ملك . وإذا ما ألقينا نظرة

شاملة على جميع هذه الآراء اعترتنا الدهشة. إذ نرى أن أفلاطون قد جاء فى هذا الوقت القديم بكل ما جاءت به فى العصور الوسطى للفسلفة والدين والأنظمة المسيحية ، وبالشيء الكثير مما جاءت به الفاشية فى العصر الحديث . لقد صارت نظرية الأفكار هى « واقعية » المدرسيين — واقعية « العموميات » الموضوعية ، ولم يكن أفلاطون مسيحياً قبل وجود المسيحية — على حد قول نتشه — فحسب ، بل كان فوق ذلك متزمتاً مسيحياً قبل وجود عصر التزمت المسيحى . فهو يرتاب فى الطبيعة البشرية ويراها شراً ، ويعتقد أنها هى الخطيئة الأولى التى لوثت النفس . وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتى كانت هى الفكرة الرئيسية فى القرنين السادس والخامس ، فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قدسية[١٣٩] . وهو يستمد من فيثاغورس والأورفية اعتقاد الشرق فى تناسخ الأرواح ، والكرما(*) ، والخطيئة والتطهير ، و « الانطلاق » ؛ ويضرب فى كتبه الأخيرة على نغمة أخروية شبيهة بنغمة أوغسطين أى نغمة الرجل الذى تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح ، ولولا هذا النثر الذى بلغ غاية الكمال لشك الإنسان فى أن أفلاطون من اليونان .

وقد بقى أفلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنه يتصف بعيوبهم الجذابة المحبوبة . وكان مثل دانتى مرهف الحس إلى حد يستطيع معه أنه يرى الجمال الكامل السرمدى وراء الأشكال الدنيوية غير الكاملة . وكان زاهداً لأنه كان مضطراً فى كل لحظة إلى أن يكبح جماح مزاجه القوى العنيف[١٤٠] . وكان شاعراً يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شاذة غريبة ، وتستحوذ عليه مآسى الأفكار ومباهجها ، يهيجه التحمس الذهنى

(*) عقيدة بوذية تقول إن أعمال الإنسان والكائنات الحية بوجه عام يحددها تتابع العلل والمعلولات السابقة بنظام محتوم لا يتبدل . (المترجم)

المنبعث من الحياة العقلية الحرة التى كانت تستمتع بها أثينة . ولكن كان من سوء حظه أنه رجل منطق وشاعر معاً ، وأنه كان أقوى مجادل فى العصر القديم ، فقد كان أدق فى جدله من زينون الإلياثى ومن أرسطو ، وأنه كان يشغف بالفلسفة أكثر من شغفه بأية امرأة أو أى رجل ، وأنه انتهى فى آخر الأمر بمثل ما انتهى إليه البحاث الأكبر فى رواية دستيوفسكى ، وهو قمع كل تفكير حر ، واعتقاده بأن الفلسفة يجب أن يقضى عليها لكى يعيش الإنسان . ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلا لكان هو أول ضحاياها .

الفصل الرابع

أرسطوطاليس

١ — أعوام التجوال

لما مات أفلاطون شيد أرسطوطاليس مذبحا له وكرمه تكريما يكاد يبلغ حد التأليه ، ذلك لأنه كان يعجب بأفلاطون وإن لم يكن يميل إليه . وكان أرسطوطاليس قد قدم إلى أثينة من مسقط رأسه فى اسطاغيرا وهى مستعمرة يوناتية صغيرة فى تراقية . وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثانى Amyntas II والد فليب ، وكان قد علم الشاب (إذا لم يكن جالينوس مخطئاً فى قوله) شيئاً من التشريع قبل أن يبعث به إلى أفلاطون(١٤١) . واجتمعت باجتماع الفيلسوفين نزعتان متعارضتان فى تاريخ الفكر — النزعة الصوفية والنزعة الطبيعية — وأخذتا تحتربان . ولو أن أرسطوطاليس لم يستمع إلى أفلاطون تلك المدة الطويلة (التى يقدرها بعضهم بعشرين عاماً) لجاز أن يكون له عقل علمى محض ؛ أما وقد استمع له تلك المدة فإن ابن الطبيب أخذ ينازع فيه تلميذ المعلم المتزمت ، ولم تتغلب إحدى النزعتين على الأخرى ، لهذا لم يقرر أرسطو طول حياته أى النزعتين يطيع . لقد كدس حوله ملاحظات علمية تكفى لإخراج موسوعة كاملة ، ثم حاول أن يحشرها فى القالب الأفلاطونى الذى صنع عقله المدرسى على غراره . ولقد نقض حجج أفلاطون فى كل مرحلة من مراحل تفكيره لأنه كان يستعير منه فى كل صفحة من صفحات كتبه .

وكان طالبا مجدا ، وشرعان ما لاحظ فيه معلمه هذا الحد . ولما قرأ أفلاطون رسالته عن الروح فى المجتمع العلمى كان أرسطوطاليس (على حد قول ديجين

لبرتس) « الشخص الوحيد الذى يستمع إليها من أولها إلى آخرها ، أما غيره فقد انفضوا من حوله » . ولما مات أفلاطون ذهب أرسطوطاليس إلى بلاط هرمياس Hermeias ، وكان قد درس معه فى المجمع العلمى وارتفع من عبد رقيق إلى أن صار حاكماً بأمره فى أترنيوس Atarneus وأسوس Assus من بلاد آسية الصغرى . وتزوج أرسطوطاليس بيثياس Pythias ابنة هرمياس (٣٤٤) ؛ وأوشك أن يستقر فى أسوس ، لكن الفرس اغتالوا هرمياس ، لأنهم ظنوه يدبر الخطط لمعاونة فليب فى غزوه المرتقب لبلاد آسية[١٤٣] . وفر أرسطوطاليس مع بيثياس إلى لسبوس القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعى[١٤٤] . ثم ماتت بيثياس بعد أن رزق منها بنتاً ، ثم تزوج أرسطوطاليس بعدئذ الغانية هربليس Herpyllis أو عاشرها[١٤٥] ، ولكنه ظل إلى آخر أيام حياته يعز ذكرى بيثياس ، وأوصى وهو على فراش الموت أن تدفن عظامه بجوار عظامها ، ذلك أنه لم يكن بالرجل المنكب على الدرس والكتب الذى قد يتصوره الإنسان بالنظر إلى مؤلفاته . وفى عام ٣٤٣ دعاه فليب ليتولى تعليم الإسكندر ، وكان وقتئذ غلاماً طائشاً فى الثالثة عشرة من عمره . وأكبر الظن أن فليب قد عرف الفيلسوف أيام شبابه فى بلاط أمينتاس . وجاء أرسطوطاليس إلى پلا ؛ وظل يقوم بهذا الواجب الثقيل أربع سنين ؛ وفى عام ٣٤٠ كلفه فليب بالإشراف على إعادة بناء اسطرخوس وتعميرها ، وكانت قد ضربت فى أثناء الحرب مع أولنثوس Olynthus ؛ وطلب إليه فوق ذلك أن يضع لها شرائعها ؛ وقد قام بهذه الأعمال جميعها قياماً أرضى أهل المدينة ، فأخذت من ذلك الحين تحيى ذكرى هذا التعمير بإقامة عيد له فى كل عام[١٤٦] .

وفى عام ٣٣٤ عاد إلى أثينة ، وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة — وأكبر الظن أن الإسكندر قد أمده بما يلزمه من المال ، واختار مكانها فى أجمل دار للتدريب الرياضى فى أثينة ، وهى طائفة من المبانى خاصة بأپلو لوقيوس

Apollo Lyceus (إله الرعاة) تحيط بها حدائق غناء ، وطرقات مسقوفة ، وكان فى صدر النهار يلقى على الطلبة المنتظمين فيها دروساً فى موضوعات راقية ، وفى عجزه يلقى محاضرات على جماعات من الشعب أقل انتظاماً وأقل رقياً ممن يستمعون إليه فى الصباح . وأكبر الظن أن هذه المحاضرات الثانية كانت فى البلاغة ، والشعر ، والأخلاق والسياسة ، وقد جمع فى هذا البناء مكتبة كبيرة ، وأنشأ فيه حديقة للحيوان ومتحفاً للتاريخ الطبيعى ، وسميت المدرسة فيما بعد ، باللوقيون Lyceun ، كما سمى الطلاب بالمشائين وسميت فلسفتهم بالمشائية نسبة إلى المماشى المسقوفة (Pereptaoi) التى كان أرسطوطاليس يحب أن يسير فيها مع طلابه وهو يحاضرهم[١٤٧] . وقامت منافسة حاده بين اللوقيون التى كان معظم طلابها من الطبقة الوسطى ، وبين المجمع العلمى الذى كان يستمد معظم أعضائه من طبقة الأشراف ، ومدرسة إسقراط التى كان يؤمها فى الغالب يونان المستعمرات . ثم خفت حدة هذه المنافسة فيما بعد حين وجه إسقراط اهتمامه إلى الفلسفة ، وحين أخذ المجمع العلمى يعنى بالعلوم الرياضية ، وما وراء الطبيعة ، والسياسة ، وأخذت اللوقيون تعنى بالتاريخ الطبيعى . وكان أرسطو يطلب إلى تلاميذه أن يجمعوا المعلومات فى الميادين العلمية المختلفة وينسقوها : كعادات البرابرة ؛ ودساتير المدن اليونانية ، وتواريخ الفائزين فى الألعاب البيثية والديونيشيا الأثينية ، وأعضاء الحيوانات ، وعاداتها ، وأوصاف النباتات وتوزيعها ؛ وتاريخ العلوم والفلسفة ، وأضحت هذه البحوث ذخيرة طيبة من المعلومات يستمد منها رسائله المختلفة التى يخطئها الحصر ، وكان أحياناً يولى هذه المعلومات من الثقة أكثر مما تستحق :

وكتب لأصحاب المتعلمين نحو سبع وعشرين محاورة يرى شيشرون وكونتليان أنها تضارع محاورات أفلاطون ؛ وهذه المحاورات هى التى قامت عليها شهرته فى الزمن القديم[١٤٨] ؛ وقد ضاعت فيما ضاع على أثر استيلاء البرابرة على رومة .

أما ما بقى لنا من مؤلفاته فهو مجموعة من الكتب الفنية ، المجردة إلى أبعد حد فى التجريد ، والخالية من المتعة إلى درجة تعز على التقليد ، وقلما كان العلماء الأقدمون يشيرون إليها فى مؤلفاتهم ، ولعله قد كتبها فى السنين العشرين الأخيرة من حياته بالرجوع إلى مذكرات له وضعها بنفسه ليعتمد عليها فى محاضراته ، أو من مذكرات دونها تلاميذه عن هذه المحاضرات ؛ ولم تكن هذه الذخيرة العلمية الفنية معروفة خارج اللوقيون حتى نشرها أندرنكوس Andronicus من أهل رودس فى القرن الأول قبل الميلاد(١٤٩) .

وقد بقيت لنا من هذه الكتب أربعون كتابا ، ولكن ديجين لبرتس يضيف إليها ٣٦٠ كتابا أخرى أكبر الظن أنها رسائل قصيرة كل منها فى موضوع واحد . وهذه البقايا العلمية القليلة هى التى يجب علينا أن نبحث فيها عن الأفكار التى كانت وقتئذ ما أفكاراً حية ، والتى أكسبت أرسطوطاليس فى العصور التى تلت عصره لقب « الفيلسوف » . وإذا ما أخذنا ندرسه فعلينا ألا نتوقع أن نرى فى كتاباته من البهجة ما فى أفلاطون ، ومن الفكاهة ما فى ديجين ؛ بل كل الذى نجده هو طائفة كبيرة من المعلومات القيمة ، ومن الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذى يعيش من رفدهم(*) .

(*) ويمكن تقسيم ما بقى من رسائله ستة أقسام :

١ — رسائل فى المنطق : مقولات ، شروح ، تحليلات سابقة ، تحليلات لاحقة ، موضوعات ، استدلالات سوفسطائية

٢ — علوم :

(ا) علوم طبيعية : طبيعة ، ميكانيكا ، هيئة ، ظواهر جوية .

(ب) أحياء : تاريخ الحيوان ، أجزاء الحيوان ، حركات الحيوان ، انتقال الحيوان ، تناسل الحيوان .

(جـ) علم النفس : فى الروح ، مقالات قصيرة فى طبيعة العالم .

٣ — ما وراء الطبيعة .

٤ — علم الجمال : البلاغة ، والشعر .

٥ — علم الأخلاق : الأخلاق النيقوماخية الأخلاق الأوديمية .

٦ — السياسة : علم السياسة ، دستور أثينة .

٢ العالم الطبيعى

إن الاعتقاد السائد هو أن أرسطو فيلسوف قبل كل شيء ، ولعل هذا من الأخطاء الشائعة ؛ بيد أننا سنعده فى هذا الكتاب عالما طبيعيا أولا ، حتى إذا لم يكن لهذا سند إلا أنه رأى فى الرجل جديد :

وأول ما نقوله عنه أن عقله الطلعة يهتم بعملية الاستدلال وأصولها الفنية ، ويحلل هذه العملية والأصول تحليلا بلغ من الدقة حدا أصبح معه الأورغانون (Organon) أو الآلة (الفكرية) — وهو الاسم الذى أطلق بعد وفاته على رسالاته فى المنطق — المرجع الذى ظل المناطقة يعتمدون عليه مدى ألفى عام . وهو يتوق إلى أن يكون واضح التفكير ، وإن كان لا يصل إلى هذا الغرض فيما لدينا من كتبه إلا نادرا ؛ فهو يقضى نصف وقته فى تعريف مصطلحاته ، فإذا فرغ من هذا شعر بأنه قد حل المسألة التى يبحث فيها : وهو يعرّف التعريف نفسه تعريفا دقيقاً بأنه تحديد الشيء أو الفكرة بذكر الجنس أو الصنف الذى ينتمى إليه ذلك الشيء ، أو تنتمى إليه تلك الفكرة (كقوله « الإنسان حيوان ») والفروق الخاصة التى تميزه أو تميزها عن جميع أفراد الصنف (« الإنسان حيوان عاقل ») . ومما تمتاز به طريقته المنظمة أنه قسم المظاهر الرئيسية التى يمكن دراسة أى شيء بمقتضاها عشرة أقسام : المادة ، والكم ، والكيف ، والعلاقة ، والمكان ، والزمان ، والموضع ، والملك ، والفاعلية ، والانفعالية — وهو تصنيف وجد فيه بعض الكتاب ما يعينهم على تنشيط ذهنهم الكليل .

وهو يرى أن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة ، وأن القوانين العامة ليست إلا أفكاراً مبعمة ، وأنها ليست فطرية بل تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة ، فهى مدركات وليست أشياء[١٥٠] . وهو يقرر قرار

لواثق مبدأ التناقض ، بوصفه الشيء البديهى فى المنطق كله ، وهو أن « الصفة الواحدة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن غير صفاته فى العلاقة الواحدة(١٥١) » . ويكشف عن المغالطات التى يقع فيها السوفسطائيون أو يغرون الناس بالوقوع فيها ، وينتقد المتقدمين لأنهم صوروا الكون أو وضعوا نظرياتهم عنه من خيالهم بدل أن يمضوا الوقت الطويل فى الرصد والتجارب بصبر وأناة(١٥٢) . ومثله الأعلى الاستدلال المنطقى وهو القياس — المكون من ثلاث قضايا ثالثتها نتيجة محتومة للقضيتين الأوليين ؛ ولكنه يقر بأنه إذا أريد تجنب الوقوع فى خطأ المصادرة على المطلوب الأول(*) وجب أن يسبق القياس استقراء واسع يجعل قضيته الكبرى مرجحة ؛ وهو وإن كان فى رسائله الفلسفية يضل فى بيداء الاستدلال يمجد الاستقراء ويجمع فى كتبه العلمية ذخيرة طيبة من الملاحظات المحدودة الدقيقة ، ويسجل فى بعض الأحيان تجاربه هو أو تجارب غيره من العلماء(**) . وقصارى القول أنه رغم أغلاطه واضع أساس الطريقة العلمية وأول من نظم التعاون فى البحث العلمى .

فهو يبدأ بحثه العلمى من حيث انتهى ديموقريطس ، ولا يخشى أن يلج كل ميدان فيه . وهو أضعف ما يكون فى الرياضيات والطبيعة ، ويقتصر فيهما على دراسة المبادئ الأساسية . فهو فى كتابه « الطبيعة » لا يسعى وراء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة فى هذا العلم كالمادة ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والاستمرار ، واللانهائى ، والتغير ، والنهاية . فالحركة والمكان عنده مستمران ، وهما لا تتكونان ، كما يفترض زينون ،

(*) هو افتراض صحة ما يراد إثباته . (المترجم)

(**) مثال ذلك أنه يشير فى كتابه « تناسل الحيوان (٤ : ٦ : ١) » إلى نمو العينين من جديد إذا أزيلتا فى صغار الطير ؛ وهو يرفض النظرية القائلة : إن الخصية اليمنى تنتج الذكور واليسرى تنتج الإناث من الأبناء ، ويستدل على ذلك بأن رجلا أزيلت خصيته اليمنى ومع ذلك ظل ينجب بنين وبنات .

من لحظات أو أجزاء صغيرة قابلة للانقسام ، والشيء « اللانهائى » موجود بالقوة لا بالفعل[١٥٣] . وهو يحس بالمشاكل التى أثارت تفكير نيوتن وإن لم يعمل شيئاً لحلها ؛ وهذه المشاكل هى القصور الذاتى ، والجاذبية والحركة ، والسرعة . ولديه فكرة عن توازن القوى ، ويقول فى قانون الروافع : « كلما كان الثقل المحرك بعيداً عن نقطة الارتكاز كان أقدر على تحريك (الجسم)[١٥٤] » .

ويقول إن الأجرام السماوية كلها كرات — ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض بنوع خاص ، لأنه لا يستطاع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كرية[١٥٥] . وهو يدرك الأزمنة الجيولوجية إدراكاً يستثير الإعجاب فيقول مثلا إن البحر يستحيل إلى أرض والأرض تستحيل إلى بحر على توالى الأيام ، ولكنا لا نحس بهذا التحول[١٥٦] ، وقد ظهرت أمم وحضارات لا حصر لها ثم اختفت ، إما بسبب الكوارث السريعة ، وإما بسبب عدوان الأيام البطيء . « وأكبر الظن أن كل فن قد نما وازدهر وارتفع إلى أعلى الدرجات عدة مرار ثم اختفى . وهذا أيضاً شأن الفلسفة[١٥٧] » . والحرارة أهم عامل فى التغيرات الجيولوجية والجوية . وهو يجازف بتفسير أصل السحب والضباب ، والندى والصقيع ، والمطر ، والثلج والبرد ، والرياح ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ، والشهب . ونظرياته فى الغالب شاذة غريبة ، ولكن رسالته الصغيرة فى الظواهر الجوية عظيمة الخطر من الناحية التاريخية ، لأنها لا تستند إلى القوى الخارقة للطبيعة ، بل يحاول فيها أن يرجع ما فى الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على القوانين الطبيعية إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقاً لنظام محدد ، ولم يكن من المستطاع أن ترقى العلوم الطبيعية فوق الحد الذى وصلت إليه على يديه إلا بعد أن مدتها الاختراعات بأجهزة وآلات أوسع مدى وأدق فى الرصد والقياس .

أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو الحقيق ، فهو فيه واسع الملاحظة عظيم الاطلاع ؛ وفيه أيضاً يرتكب أكثر الأغلاط ؛ وأعظم فضل له على هذا العلم الحيوى أنه نسق كل ما كشف فيه من قبل ودعم أركانه ، فقد استعان بتلاميذه على جمع المعلومات القيمة عن الحيوان والنبات فى بلاد بحر إيجه كما جمع فى مكان واحد أولى المجموعات العلمية من الحيوان والنبات . وإذا جاز لنا أن نأخذ بقول پلنى Pliny[١٥٨] فإن الإسكندر أصدر الأوامر لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك له ، وغيرهم ألا يمنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها وأن يمدوه بما يريده من المعلومات . ويعتذر الفيلسوف عن اهتمامه بتلك الأشياء الصغيرة فيقول : « ليس فى الأشياء الطبيعية ما يخلو من الأعاجيب ، وإذا ما احتقر إنسان التفكير فى الحيوانات الدنيا ، فإن عليه أن يحتقر نفسه »[١٥٩] .

وهو يقسم المملكة الحيوانية قسمين ، ذات دم وغير ذات دم : إنيما ، وأنيما Anaima, Enaima وهما يقابلان بوجه التقريب تقسيمنا إياها إلى « فقاريات » و « لافقاريات » . ثم يعود فيقسم الحيوانات غير ذات الدم إلى صدفية ، وقشرية ، ورخوة ، وحشرات ، ويقسم الدموية إلى أسماك ، وقوازب(*) ، وطيور ، وثدييات .

وتشمل بحوثه فى هذا العلم ميدانا واسعا مختلف الأنحاء . فهو يبحث فى أعضاء الهضم ، والإخراج ، والحس ، والحركة والتكاثر ، والدفاع ؛ وفى أنواع الأسماك ، والطيور ، والزواحف ، والقردة ، ومئات غيرها من الأصناف ؛ وفى فصول تزاوجها ، وطريقة حملها صغارها ، وتربيتها إياها ؛ وفى ظواهر البلوغ ، والحيض ، والحمل ، والإجهاض ، والوراثة ، والإتئام ؛ وفى مواطن الحيوانات وهجرتها ؛ وما يعيش عليها من الطفيليات وما ينتابها من الأمراض ؛ وفى طرق نومها وفصول سباتها . . . وهو يشرح حياة النحلة شرحاً وافياً ممتعاً[١٦٠] . وكتابه ملىء بالملاحظات

(*) القوازب أو البرمائيات : هى التى تعيش فى البر والبحر على السواء . (المترجم)

العجيبة العارضة ، كقوله إن دم الثيران يتجمد أسرع من تجمد دماء معظم الحيوانات الأخرى ، وإن بعض ذكور الحيوان كالجدى بنوع خاص قد تدر اللبن ، وإن الخيل ذكوراً وإناثاً أكثر الحيوانات شهوانية بعد الإنسان(*)(١٦١) .

وهو شديد الاهتمام بأجهزة التوالد وأساليبها فى الحيوان ، وتثير دهشته كثرة الأساليب التى تتوصل بها الطبيعة إلى الإبقاء على أنواع الأحياء ، وكيف « تحتفظ بالنوع حين يعجزها أن تحتفظ بالفرد(١٦٢) » ، وقد ظل عمله فى هذا الميدان فذا منقطع النظير حتى القرن الماضى . ومن أقواله أن حياة الإنسان تدور حول بؤرتين — الأكل والتوالد(١٦٣) : فللأنثى عضو يجب أن يعد بمثابة مبيض لأنه يحتوى على ما يكون فى بادئ الأمر بيضة غير متميزة ، ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة(**) » . والعنصر الأنثوى يزود مادة الجنين بالطعام ، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة ، والأنثى هى العنصر المنفعل ، أما الذكر فهو العنصر النشيط الفعال(١٦٥) . ويرفض أرسطو ما يراه أنبادوقليس وديموقريطس من أن جنس الجنين تعينه حرارة الرحم أو تغلب أحد عنصرى التكاثر على العنصر الآخر ، ثم يصوغ بعدئذ هذه النظريات على أنها من وضعه فيقول : « كلما عجز العنصر المكوِّن (الذكر) عن أن تكون له الغلبة ، ولم يستطع لنقص حرارته أن يطبخ المادة ، أو يشكلها فى شكله هو ، انتقلت هذه المادة إلى . . . صورة الأنثى(١٦٦) » ويضيف إلى ذلك قوله : « وقد يحدث أحيانا أن تلد

(*) تدل بعض الإشارات الواردة فى « تاريخ الحيوان » على أن أرسطو أعد مجلداً فى الرسوم التشريحية ، وأن بعض هذه الرسوم قد نقلت من هذا المجلد على جدران اللوقيون ؛ وهو يستخدم فى كتابه الحروف على الطريقة الحديثة ، ليشير بها إلى بعض الأعضاء أو بعض النقط فى الرسوم .

(**) لقد عجز أرسطوطاليس عن أن يميز بين المبيض والرحم ، ولكن وصفه لم يحسن تحسناً ذا بال قبل عمل استنسن **Stenson** فى عام ١٦٦٩ .

obeikandl.com

المرأة ثلاثة صغار أو أربعة ، وخاصة فى أجزاء معينة من الأرض . وأكبر عدد ولدته امرأة هو خمسة أبناء ، وقد حدث هذا عدة مرار . وحدث فى زمن ما أن وضعت امرأة عشرين طفلا على أربع دفعات وأن عاش معظم هؤلاء الأطفال حتى كبروا(١٦٧) » .

وهو يستبق القرن التاسع عشر فى كثير من نظريات علم الأحياء . فهو يعتقد مثلا أن أعضاء الجنين وخواصه تتكون بوساطة جزيئات دقيقة (هى « ذرات التناسل بالتجمع العام » التى يذكرها دارون(*)) تنتقل من كل جزء من أجزاء الشخص الكبير إلى عناصر التوالد(١٦٨) . وهو يقول كما يقول فن بير Von Baer إن الخواص المميزة للجنس تظهر فى الجنين قبل غيرها من الصفات ، ثم تليها الخواص المميزة للنوع ، وتلى هذه الخواص المميزة للفرد (١٦٩) . وهو يذكر مبدأ يفخر به هربرت إسپنسر ، وهو أن خصوبة الكائن الحى بوجه عام تتناسب تناسبا عكسيا مع تعقد تطوره(١٧٠) وخير ما يتجلى فيه نبوغه هو وصفه جنين الدجاج :

« أجر إذا شئت هذه التجربة : إبت بعشرين بيضة أو أكثر ، واجعل دجاجتين أو أكثر ترقدان عليها . ثم خذ منها بيضة فى كل يوم ؛ ابتداء من اليوم الثانى إلى أن تفقس واكسرها وافحص عنها . . . فى حالة الدجاجة العادية تستطاع رؤية الجنين أول مرة بعد ثلاثة أيام . . . فيظهر القلب فى صورة نقطة من الدم ، ينبض ويتحرك كأنه قد وهب الحياة ، ويخرج منه وعاءان بهما دم يسيران فى تلافيف ، وغشاء يحمل خيوطا رفيعة دموية من

(*) يشير الكاتب إلى مذهب دارون فى الوراثة القائل بوجود ذرات تنفصل من جميع أنواع خلايا الجسم فتلتقطها غدد التناسل ، وهذه الذرات رموز جميع الأنسجة تتجمع فى الجرثومة ومنها يتخلق المولود الجديد (معجم الدكتور شرف) . (المترجم)

أنابيب الوريدين ويحيط بجميع أجزاء المخ (الصفار) . . . وبعد عشرة أيام يرى الفرخ بجميع أجزائه واضحا كل الوضوح[١٧١] » .

ويعتقد أرسطو أن جنين الإنسان ينمو كما ينمو جنين الكتكوت : « ويرقد الطفل فى رحم أمه بهذه الطريقة عينها . . . لأن طبيعة الطائر يمكن تشبيهها بطبيعة الإنسان[١٧٢] » . وهو يستطيع بنظريته الخاصة بالأعضاء المتشابهة أن يرى عالم الحيوان فى صورة جامعة : « فالظفر مماثل للمخلب ، واليد شبيهة بثنية السرطان القاطعة ، والريشة بقشرة السمكة[١٧٣] » وهو يقترب فى بعض الأحيان من نظرية النشوء والارتقاء :

« تسير الطبيعة قليلا قليلا من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن نحدد تحديدا دقيقا متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . . . فجنس النبات مثلا يأتى بعد الجمادات غير الحية فى سلم الرقى ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبيا إذا وازنا بينه وبين الحيوان ، ولكنه حى إذا ووزن بالأشياء الجامدة . وفى النبات سلم تصاعدى مستمر نحو مرتبة الحيوان . ففى البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول هل هى حيوان أو نبات . . . فالإسفنج مثلا شبيه بالنبات من جميع الوجوه . . . وبعض الحيوانات ثابتة فى أماكنها لا تنتقل منها ، وإذا انتزعت منها هلكت . . . أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظفر فيها غامضة . . . وهذا التنوع بعينه يظهر فى سلم الرقى الحيوانى[١٧٤] .

وهو يرى أن القرد صورة وسطى بين الإنسان وغيره من الحيوانات التى تلد[١٧٥] ، ولا يقبل فكرة أنبادوقليس عن الانتخاب الطبيعى للتغيرات العارضة ، لأن النشوء والارتقاء ليس فيهما أشياء عارضة ، بل إن خطوط التطور يحددها ما فى كل فرد ، ونوع ، وجنس من دافع فطرى لكى ينمى نفسه

نماء يصل به إلى أقصى درجة من تحقيق طبيعته . إن لهذا التطور خطة موضوعة ولكنها دفع من الداخل نحو الغرض يجذب كل شيء إلى أن يكمل طبيعته .

ويمتزج بهذه الآراء النيرة كل ما يتوقع الإنسان وجوده فى ذلك الزمن القاصى الذى يبعد عنا نحو ثلاثة وعشرين قرنا من أخطاء كثيرة ، يبلغ بعضها من الشناعة حداً لا نرى معه حرجاً إذا ظننا أن مؤلفات أرسطو فى علم الحيوان قد اختلطت فيها مذكراته بمذكرات تلاميذه(١٧٦) . فكتابه فى تاريخ الحيوان معين لا ينضب من الأخطاء ؛ فهو يقول فيه إن الفيران تموت إذا شربت الماء فى الصيف ، وإن الفيلة لا يصيبها إلا مرضان — الزكام والانتفاخ ، وإن الحيوانات كلها ما عدا الإنسان يصيبها السعور إذا عضها كلب كلب(*) ، وإن ثعبان الماء ينشأ نشأة شيطانية ، وإن الإنسان وحده هو الذى يخفق قلبه ، وإنه إذا رج صفار عدة بيضات اجتمع فى وسط الإناء ، وإن البيض يطفو فوق الماء الكثير الملح(١٧٧) . يضاف إلى هذا أن أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان ، فقد يلوح أنه لا هو ولا أبقراط قد تحررا من سلطان الدين فأقدما على تشريح الأجسام البشرية(١٧٨) . ومن أجل هذا وقع فى أغلاط شنيعة منها قوله إن ليس للإنسان إلا ثمانية أضلاع ، وإن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل(١٧٩) ، وإن القلب أعلى من الرئتين ، وإن القلب لا المخ هو مركز الإحساس(**)(١٨٠) . وإن وظيفة المخ هى تبريد الدم (بالمعنى الحرفى لهذه العبارة)(١٨١) . وآخر ما نذكره من هذه الأغلاط أنه (هو أو إنساناً آخر سمجاً ثقيلا) قد ذهب بنظرية الخطة الموضوعة مذاهب يضحك منها كل حكيم . « من الواضح أن النباتات قد خلقت لمنفعة الحيوانات ، كما خلقت الحيوانات لمنفعة الإنسان » « لقد جعلت الطبيعة الأعجاز للراحة ، لأن ذوات الأربع تستطيع أن تقف

(*) ويسمى أيضا الحديث والقريث والمزف وهو ضرب من الحيوانات البحرية (eels)

(**) وقد أوقعه فى هذا الخطأ عدم إحساس أنسجة المخ بالتنبيه المباشر . (المترجم)

على أرجلها دون أن تتعب ، أما الإنسان فهو فى حاجة إلى ما يجلس عليه[١٨٢] . وحتى هذه الفترة الأخيرة تكشف عن طبيعة أرسطوطاليس العلمية ؛ فمؤلف هذا الكتاب يرى أن من الأمور المسلم بها أن الإنسان حيوان ، ولهذا يبحث عن الأسباب الطبيعية لما بين الإنسان والحيوان من فروق فى التشريح . وقصارى القول أن تاريخ الحيوان فى مجموعه هو خير مؤلفات أرسطوطاليس على الإطلاق ، وأنه أعظم ما أثمره العلم فى بلاد اليونان أثناء القرن الرابع . وقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر ظهور مؤلف يضارعه .

٣ — الفيلسوف

إذا ما انتقل أرسطوطاليس إلى دراسة الإنسان نفسه أصبح ميتافيزيقياً أكثر منه عالماً طبيعياً . ولسنا ندرى هل منشأ هذا التحول هو تقواه الشديد أو احترامه لآراء بنى الإنسان . وهو يعرف النفس (Psyche) أو العنصر الحيوى بأنه « الدافع الداخلى الأول فى الكائن العضوى » أى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتى تدفع نماءه وتحدد اتجاهه . وليست النفس شيئاً يأتى إلى الجسم من خارجه أو يسكن فيه بل هى موجودة معه فى كل جزء من أجزائه ؛ أى أنها هى الجسم نفسه من حيث « قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله » ؛ فهى جماع وظائف الكائن العضوى ، وهى للجسم كقوة الإبصار للعين[١٨٣] . بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هى التى توجد التراكيب والرغبات هى التى تشكل الأعضاء ، والنفس هى التى تكون الجسم : « فالأجسام الطبيعية كلها أعضاء للنفس(*) » .

(*) ويضيف أرسطوطاليس إلى قوله السابق الدال على نزعة مثالية عجيبة قوله : إن « النفس هى بمعنى ما جميع الموجودات ؛ لأن الأشياء كلها إما إحساسات أو أفكار[١٨٥] » وهو يتفق فى آرائه مع بركلى Berkeley ومع هيوم Hume فى آن واحد . انظر مثلا إلى =

والنفس ثلاث درجات : نامية ، وحاسة ، وناطقة . فالنبات يشترك مع الإنسان والحيوان فى النفس النامية — أى فى قدرته على تغذية نفسه وعلى النماء الداخلى ، وللحيوان والإنسان فضلا عن هذه النفس نفس حاسة — أى قدرة الإحساس ، وللحيوانات الراقية والإنسان نفس « منفعلة عاقلة » — أى قدرة على الأشكال البسيطة البدائية من الذكاء ، والإنسان وحده هو الذى له نفس « فاعلة عاقلة » — أى قدرة على التعميم والابتكار . وهذه النفس الأخيرة جزء أو انبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهى الله ، وهى بهذا الوصف لا تموت(١٨٧) . ولكن هذا الخلود غير شخصى ، أى أن الذى يبقى هو القوة لا الشخصية ، والفرد مركب فذ فإن من المواهب النامية والحاسة والعاقلة ، وهو لا يصل إلى الخلود إلا نسبياً ، وذلك عن طرق التوالد ، وبطريقة غير شخصية عن طريق الموت(*) .

والله هو « صورة » العالم أو « حقيقته الفعلية entelechy » — طبيعته الفطرية ، ووظائفه ، وأغراضه(**) كما أن الروح هى « صورة » الجسم .

— قوله : « إن العقل واحد ومستمر بالمعنى الذى تكون به عملية التفكير واحدة ومستمرة ؛ والتفكير هو بعينه الأفكار التى هى أجزاؤه »

(*) ويمكن تفسير أقوال أرسطوطاليس المتناقضة فى هذه النقطة تفسيرات أخرى . والنص الذى أثبتناه هنا مأخوذ من المجلد الرابع من تاريخ كامبردج القديم Cambridge Ancient History ص ٣٤٥ ؛ ومن الجزء الثانى من كتاب أرسطوطاليس تأليف جروت Grote ص ٢٣٣ ، ومن كتاب النفس (Psyche) تأليف رود Rhode ص ٤٩٣ .

(**) ويرى أرسطو كما يرى أفلاطون أن الأمر الجوهرى فى أى شىء هو « الصورة » eidos لا المادة المصورة ؛ وليست المادة هى « الشىء الحقيقى » بل هى إمكانية سالبة منفعلة لا تتخذ لها وجوداً خاصاً إلا إذا دفعتها الصورة وحددتها .

والعلل كلها ترتد آخر الأمر إلى العلة الأولى التي لا علة لها(*) ، كما ترد كل الحركات إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ؛ ولا بد لنا أن نفترض وجود أصـل أو مبدأ لما في العالم من حركة أو قوة ، وهذا الأصل هو الله . وكما أن الله هو جماع الحركة كلها ومصدرها ، فهو كذلك جماع كل غايات الطبيعة وهدفها ، فهو العلة الآخرة والأولى . وإنا لنرى الأشياء في كل مكان تتحرك نحو غايات معينة : فالأسنان الأمامية تنمو حادة لتقطع الطعام ، والأضراس تنمو مستوية لتطحنه ، والجفن يطوف ليقي العين ، والحدقة تتسع في الظلام لتدخل قدراً كبيراً من الضوء ، والشجرة تمد جذورها في الأرض ، وغصونها نحو الشمس[١٨٩] . وكما أن الشجرة تجذبها طبيعتها الفطرية وقوتها وأغراضها نحو الضوء ، فكذلك العالم ينجذب بطبيعته الفطرية وقوته وأغراضه وهذه كلها هي الله . وليس الله هو خالق العالم المادي ، ولكنه صورته المنشطة ، وهو لا يحركه من خلفه ولكنه هو الموجه له من الداخل أو هدفه ، يحركه كما يحرك الحب الحبيب[١٩٠] ، ويقول أرسطو أخيراً إن الله فكر خالص ، وروح عاقل ، يتبدى في الصور السرمدية التي تكون جوهر العالم والله في وقت واحد .

وغاية الفن ، كغاية الميتافيزيقا ، هي القبض على الصورة الجوهرية للأشياء ، وهو تقليد أو تمثيل للحياة[١٩١] ، ولكنه ليس نسخة آلية لها ، والذي تقلده هو روح المادة لا جسم المادة ولا المادة نفسها ، وعن طريق هذه البصيرة أو عكس هذا الجوهر كما تعكس المرآة الجسم قد يبدو الشيء القبيح نفسه جميلا . والجمال

(*) يقول أرسطو : إن كل معلول يخرج من أربعة علل : المادية (التي يتكون منها) ، والفعالة (العامل فيها أو قبله) ، والشكلية (طبيعة الشيء) ، والغائية (الهدف) وهو يضرب لذلك مثالا عصبيا فيقول : « ما هي العلة المادية للإنسان ؟ هي الطمث (أي وجود البويضة) . وما هي العلة الفعالة ؟ هي المادة والنطفة (أي مادة التلقيح) . وما هي الشكلية ؟ هي الطبيعة (أي طبيعة العوامل ذات الشأن) . وما هي العلة الغائية ؟ هي الغاية التي يهدف إليها » (١٨٨) .

هو الوحدة ، هو تعاون الأجزاء وتماثلها فى الكل . وتكون هذه الوحدة فى المسرحية وحدة العمل قبل كل شىء ؛ ولذلك يجب أن يكون أعظم ما تهتم به المسرحية عملا واحداً ، وأن يكون الغرض الوحيد مما فيها من أعمال أخرى هو أن ترقى بهذه القصة الرئيسية أو توضحها . وإذا أريد أن يكون العمل الفنى غاية فى الروعة والجودة وجب أن يكون موضوعه متسما بالنبل أو البطولة .

ويقول أرسطو فى تفسيره الشهير للمأساة : « المأساة تمثيل موضوع فى البطولة ، كامل متسع إلى حد ما ، بلغة تزدان بكل أنواع المحسنات . . . فهى تمثل رجالا يعملون ولا تعمد إلى القصص ، ثم تستعين بالرحمة والخوف لتخفف من وقع هذه العواطف وغيرها[١٩٢] » . والمأساة تستثير أعمق عواطفنا ثم تهدئها بخاتمتها المسكنة . وبذلك تعرض علينا تعبيراً عن العواطف لا ضرر فيه ولكنه ينفذ إلى أعماق النفس ، ولولا هذا التعبير لتجمعت العواطف فصارت عُصَاباً أو عنفاً . فهى تظهر من الآلام والأحزان ما هو أكثر رهبة من آلامنا وأحزاننا ، وتعيدنا إلى بيوتنا مبرئين مطهرين . وقصارى القول أن ثمة لذة فى تأمل عمل من أعمال الفن الحقيقية . ومن الشواهد الدالة على رقى الحضارة أن تقدم للروح أعمالا خليقة بهذا التأمل . ذلك بأن « الطبيعة لا تطلب إلينا أن نشغل أوقاتنا بالأعمال الطيبة فحسب : بل تتطلب فوق ذلك أن نكون قادرين على أن نستمتع بفراغنا بأشرف الوسائل[١٩٣] » .

فما هى الحياة الطيبة إذن ؟ يجيب أرسطو عن هذا السؤال ببساطة وصراحة فيقول إنها الحياة السعيدة ؛ وهو لا يريد أن يبحث فى كتاب الأخلاق(*)

(*) لقد كان كتاب أخلاق نيقوماخوس (وسمى كذلك لأن الذى نشره هو نيقوماخوس ابن أرسطو) وكتاب السياسة فى أول الأمر كتاباً واحداً . وكان الناشرون اليونان يستخدمون هذه الصيغة المزدوجة وهى الأخلاق والسياسة (ta etika of ta politika) ليعبروا بها عن علاج عدة مشاكل أخلاقية وسياسية ، وقد احتفظ بها كما هى حين انتقلت الكلمتان إلى اللغة الإنجليزية .

(كما يبحث أفلاطون) كيف يجعل الناس أخياراً ، بل يريد أن يبحث كيف يجعلهم سعداء ! وهو يرى أن غير السعادة من الأغراض لا يسعى إليها لذاتها بل هى وسيلة لغاية ، أما السعادة فهى وحدها التى تبتغى لذاتها[١٩٣] . وثمة بعض أشياء لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهى : المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، الوجه الجميل ، والحظ الطيب ، والسمعة الحسنة ، والأصدقاء الأوفياء ، والمال الوفير ، والصلاح[١٩٥] . « وليس فى وسع إنسان أن يكون سعيداً إذا كان دميم الخلقة[١٩٦] » « أما الذين يقولون إن الذى يعذب على العذراء ، أو تحل به كارثة شديدة ، يكون سعيداً بشرط أن يكون صالحا فقولهم هراء[١٩٧] » . وينقل أرسطو بصراحة يندر وجودها فى الفلاسفة ، جواب سمنيدس لزوجة هيرن إذ سألته أيهما أفضل الحكمة أو الغنى فقال : « الغنى ، لأنا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الأغنياء[١٩٨] » . لكن الثروة وسيلة لا أكثر ، فهى فى حد ذاتها لا ترضى غير البخيل ؛ وإذ كانت الثروة نسبية فإنها لا ترضى إنساناً زمناً طويلا . وسر السعادة هو العمل ، أى بدل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه . والفضيلة حكمة عملية ، وهى تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير[١٩٩] ، وهى فى العادة وسط بين نقيضين ؛ والإنسان فى حاجة إلى الذكاء لمعرفة هذا الوسط ، وإلى ضبط النفس (إنكراتيا enkrateia أو القوة الداخلية) لممارستها . ويقول أرسطو فى جملة من جمله النموذجية إن « الذى يغضب مما وممن ينبغى أن يغضب منه ، ويغضب فوق ذلك بالطريقة الحقة وفى الوقت المناسب للغضب ، ويطول غضبه الزمن الملائم ، إن هذا الرجل خليق بالثناء[٢٠٠] . وليست الفضيلة عملا ، بل هى تعود عمل الصواب ، ولا بد أن تفرض فى أول الأمر بالتدريب والتهذيب ، لأن الشبان لا يستطيعون أن يحكموا فى مثل هذه الأمور حكما صادقا حكيما ، فإذا مضى بعض الوقت فإن ما كان من قبل نتيجة الإرغام يصبح عادة أى « طبيعة ثانية » ، ويكاد يبعث من اللذة ما تبعثه الشهوة .

ويختتم أرسطو هذا البحث خاتمة تناقض أشد التناقض ما بدأه به وهو قوله إن السعادة فى العمل ، وإن أحسن حياة هى حياة الفكر . ذلك أن الفكر فى رأيه هو الدليل على ما انفرد به الإنسان من تفوق وامتياز ، وأن « العمل الحليق بالإنسان هو أن تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله(٢٠١) » . « وأسعد الناس حظاً هو الذى يجمع بين قدر من الرخاء وقدر من العلم ، أو البحث أو التفكير ، فهذا الرجل هو أقرب الناس إلى الآلهة(٢٠٢) » . « والذين يرغبون فى اللذة المستقلة يجب أن يطلبوها فى الفلسفة ، لأن غيرها من اللذات يحتاج إلى معونة الإنسان(٢٠٣) » .

٤ — السياسى

ويرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية ، وأن وظيفة الدولة هى أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم سعادة لأكبر عدد . « والدولة هى مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة(٢٠٤) ، وهى نتاج طبيعى ، لأن « الإنسان بطبيعته حيوان سياسى(٢٠٥) » ، أى أن غرائزه تؤدى به إلى اجتماع مع غيره .. « والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة ، وعلى الفرد » : ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد فى مجتمع منظم من قبل يشكله فى صورته .

وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستورا يونانيا ، تسم هذه الدساتير ثلاثة أنواع مختلفة ، ملكية ، وأرستقراطية ، وتمقراطية ، أى حكم أصحاب السلطان ، وأصحاب المولد الشريف ، والنبهاء . وكل نوع من

---

(٥) لم يبق من هذه الدراسات إلا كتابه « أحوال الدولة الأثينية Atheraion Politeia » ، وقد عثر عليه فى عام ١٨٩١ ، وهو تاريخ دستورى لأثينة من خير ما كتب فى موضوعه .

هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه . وتقول إحدى الجمل التى يجب على كل أمريكى أن يحفظها عن ظهر قلب « إن نوعا من أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع ولكن ليس ثمة ما يمنع أن يكون نوع آخر خيراً منه فى ظروف خاصة[٢٠٦] » . وكل حكم حسن إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعاً لا لمصلحتها الخاصة ؛ فإذا لم تفعل هذا فكل حكم سيئ . ومن ثم كان لكل نوع من أنواع الحكم الصالح شبيه فاسد حين يكون حكماً لمصلحة الحاكمين لا لمصلحة المحكومين ؛ فى هذه الحال تنحط الملكية فتصير استبدادا ، والأرستقراطية فتصبح ألجركية ، والتمقراطية فتكون دمقراطية أى حكم العامة[٢٠٧] . فإذا كان الحاكم المفرد صالحا وقديراً كانت الملكية خير أشكال الحكم ، أما إذا كان أنقراطيا أنانيا كان حكمه حكما استبداديا ظالما ، وهو شر أنواع الحكم . وقد تصلح الحكومة الأرستقراطية إلى حين ولكن الأشراف (الأرستقراط) الذين يتولون أمورها ينزعون إلى الاضمحلال والانحطاط . « ويندر أن نجد شخصا نبيل الخلق بين الأشراف بمولدهم بل إن معظمهم لا يصلحون لشىء على الإطلاق . . . فالأسر ذوات المواهب العالية كثيراً ما تنحط فيكون أبناؤها من المجانين ، ومن أمثلة ذلك أبناء ألقبيادس ودنيسوس الأكبر ، أما المتوسطون منهم فكثيراً ما يكونون حمقى أو أغبياء كأبناء سيمون ، وبركليز ، وسقراط[٢٠٨] » . وإذا ما انحطت الأرستقراطية حلت محلها فى العادة حكومة ألجركية من أصحاب المال أى حكومة ذوى الثراء . وهذه خير من طغيان الملك أو طغيان الغوغاء ، ولكنها تضع السلطة فى أيدى رجال لا تتسع نفوسهم لأكبر من ذلك العمل الصغير وهو حساب تجارتهم ، أو ذلك العمل الإجرامى الدنىء وهو أكل الربا[٢٠٩] ، وينتهى أمرهم إلى استغلال الفقراء بلا وازع من ضمير[٢١٠] .

والدمقراطية — وهو يعنى بها حكومة العامة من المواطنين demos — لا تقل خطورة عن الأرستقراطية لأنها تعتمد على انتصار الفقراء القصير الأمد على الأغنياء فى كفاحهما من أجل السلطة ؛ ونتيجتها هى الفوضى المؤدية إلى القضاء عليهما معاً . وخير ما تكون الدمقراطية حين يسيطر عليها الملاك الزراعيون ، وأسوأ ما تكون حين يسيطر عليها رعاع المدن من الصناع والتجار(٢١١) . نعم إن « حكم الكثرة يكون فى كثير من الحالات خيراً من حكم الفرد ، لأنها لكثرة أفرادها أبعد عن الفساد والرشوة بعد الماء الكثير عن التلوث »(٢١٢) . ولكن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة و« ليس فى مقدور من يعيش عيشة الصانع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب »(٢١٣) ، (أى على الخلق الطيب والتدريب ، وصحة الحكم على الأمور) . وقد خلق الناس كلهم غير متساوين . نعم إن « العدل فى المساواة ، ولكن هذا لا يكون إلا بين الأكفاء »(٢١٤) . ولا يقل استعداد الطبقات العليا لإثارة الفتن إذا فرضت عليهم مساواة غير طبيعية عن استعداد الطبقات الدنيا للتمرد إذ بلغ عدم المساواة درجة من التطرف غير طبيعية(*)(٢١٥) . وإذا ما سيطرت الطبقات الدنيا على الدمقراطية فرضت الضرائب على الأغنياء لتوفر المال للفقراء ؛ « فإذا أخذه الفقراء شرعوا يستزيدون منه ، وما أشبه هذه الحال بصب الماء فى المنخل »(٢١٧) . ومع هذا فإن الرجل المحافظ الحكيم لن يترك الناس يموتون جوعا ، و « يجب على الوطنى الحق فى الحكومة الدمقراطية أن يحذر من أن تكون أغلبية الشعب فى فقر مدقع . . . ، وعليه أن يبذل جهده فى أن يوفر لها الخبز على الدوام ؛ وإذ كان الأغنياء يستفيدون أيضاً من هذا ، فإن من الواجب أن يقسم ما يمكن ادخاره من الأموال العامة بين الفقراء بحيث يكفى نصيب كل منهم لأن يبتاع به حقلا »(٢١٨) .

(*) ويظن أرسطو أن الرق نفسه نظام مشروع ؛ فكما أن من الصواب أن يحكم العقل الجسم ، فإن من الصواب كذلك أن يحكم المتفوقون فى الذكاء من لا يتفوقون إلا فى قوة الجسم(٢١٦) .

وهكذا يرد أرسطو للأغنياء ما يكاد يعدل ما أخذه منهم ، وبعد أن يفعل هذا يعرض توصيات متواضعة لا يقصد بها أن يقيم مدينة فاضلة ، بل يهدف إلى إقامة مجتمع خير من المجتمع القائم فى زمانه إلى حد ما :

ثم ينتقل بعد هذا للبحث عن أصلح نوع من أنواع الحكم وأحسن أسلوب من أساليب الحياة يوائم المجتمعات بوجه عام .

ولسنا نريد أن يكون هذا الحكم وذلك الأسلوب مما يتفق مع تلك الفضيلة السامية البعيدة عن متناول العامة ، أو مع تلك التربية التى لا ينالها إلا من هيأت له الطبيعة والحظ جميع الفرص الطيبة ، أو مع تلك الخطط الخيالية التى يضعها الناس فى أوقات لهوهم ومرحهم ؛ بل نريد أن يتفقا مع أسلوب الحياة الذى تستطيع كثرة الجنس البشرى أن تصل إليه ، ومع نظام الحكم الذى تستطيع معظم المدن أن تقيمه(٢١٩) . . . ومن أراد أن يقيم حكومة على أساس شيوعية السلع فليرجع إلى تجارب كثيرة من السنين ؛ فإذا فعل فسيتضح له هل هذا نظام نافع أو غير نافع ؛ ذلك أن الأشياء كلها تقريباً قد عرفت ولم يبق منها مجهولا إلى القليل(٢٢٠) ... إن الشىء الذى يشترك فيه كثيرون لا يعنى به إلا أقل عناية ؛ ذلك بأن الناس يوجهون من العناية إلى ما يملكونه لأنفسهم أكثر مما يوجهون إلى ما يشاركهم فيه غيرهم(٢٢١) ... ولا بد لنا أن نبدأ بحثنا بافتراض مبدأ عام وهو أن ذلك الجزء من الدولة الذى يرغب فى بقاء الدستور الجديد يجب أن يكون أقوى من ذلك الجزء الذى لا يرغب فى بقائه(٢٢٢) ويتضح من هذا أن أحسن الدول نظاماً هى التى تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدداً وأعظم قوة من الأغنياء أو الفقراء ... وفى جميع الحالات التى قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب تغلبت عليها الطبقة التى تفوقها فى العدد ، سواء أكانت طبقة الأغنياء أم طبقة الفقراء ، وتولت بنفسها تصريف الشئون العامة . . . ؛ وإذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء ، أو الفقراء على الأغنياء ، لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة(٢٢٣) .

ويقترح أرسطو وضع « دستور مختلط » أو إقامة حكم « تمقراطى »، وهو خليط من الأرستقراطية والدمقراطية ، يمنع به هذه الدكتاتوريات المقيدة للحرية سواء أكانت دكتاتورية الأغنياء أم الفقراء . وهو يريد أن يكون حق الانتخاب فى هذا النظام مقصوراً على ملاك الأراضى ، وأن تكون فيه طبقة وسطى قوية هى مصدر السلطة وقطب دائرتها ، « ويجب أن تقسم الأرض قسمين ، أحدهما يملكه المجتمع بوجه عام ، والآخر يملكه الأفراد متفرقين[٢٢٤] » . ولا بد أن يكون كل مواطن من الملاك ، ويجب « أن يطعموا على الموائد العامة جماعات » ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يقترعون أو يحملون السلاح . وسيكون هؤلاء أقلية صغيرة من السكان ، لا تزيد على عشرة آلاف . « ويجب ألا يسمح لواحد منهم أن يشتغل بمهنة آلية أو يكسب عيشه من طريق التجارة ، لأن هاتين المهنتين غير شريفتين ، وتقضيان على التفوق[٢٢٥] » . كذلك يجب ألا يفلحوا الأرض ؛ . . . بل ينبغى « أن يكون الفلاحون طبقة من الشعب قائمة بنفسها » — ولعله يريد أن تكون من الأرقاء . ويختار المواطنون الموظفين العموميين ويحاسبون كلا منهم على أعماله فى نهاية المدة التى يتولى فيها منصبه . ويجب أن تحدد القوانين الموضوعة وفقا لنظام قويم ما يصدر من الأحكام فى جميع القضايا بقدر المستطاع ، بحيث لا يترك إلا أقل عدد مستطاع منها لتصرف القضاة[٢٢٦] . . . » ذلك أن « حكم القانون خير من حكم الفرد . . . ، وأن من يعهد بالسلطة العليا لإنسان أياً كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش ، لأن شهواته تجعله فى بعض الأحيان وحشا . وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة ، ولو كانوا هم خير من يتولاها ، أما القانون فهو العقل مجردا عن الشهوة[٢٢٧] . والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية ، والصناعة ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والأخلاق ، والموسيقى ، والأدب ، والفن . « وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد الناس حدا معينا . . . لأن إهمال هذا

الواجب يؤدى إلى افتقار المواطنين(٢٢٨) ؛ ويجب ألا يسمح بتربية أبناء مشوهين عاجزين » ، ومن هذه الأسس السليمة تتفتح أزهار الحضارة والطمأنينة . « وإذ كان الذكاء أعظم الفضائل ، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربى ، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة(٢٢٩) » .

وبعد فليس من الضرورى أن ننصب أنفسنا حكاما على أعمال أرسطوطاليس . وحسبنا أن نقول إنا لا نعرف أحداً من الناس قبله قد شاد مثل هذا الصرح الرائع من التفكير . وحين يمتد نشاط الإنسان الذهنى إلى ميادين واسعة ، فإن من حقه علينا أن نعفو عن كثير من زلاته ، إذا ما وسعت نتائج بحوثه إدراكنا للحياة . وإن أخطاء أرسطو — أو أخطاء المجلدات التى نعدها بالحق أو بالباطل ثمار قلمه — لتبلغ من الوضوح حدا لا نحتاج معه إلى إيرادها مفصلة . فهو رجل منطق ، ولكن هذا لا يمنعه أن يقع فى كثير من الأغلاط المنطقية ؛ وهو يضع قواعد البلاغة والشعر ، ولكن كتبه أيكة مشتبكة الأغصان من سوء النظام ، أوراقها المتربة نفثةٌ من ريح الخيال . بيد أننا إذا ما توغلنا فى هذه الأيكة ، التقينا فيها بكنز من الحكمة والنشاط العقلى الذى شق طرقا كثيرة فى ميدان العقل .

وليس فى وسعنا أن نقول إنه قد أوجد علم الأحياء ، أو تاريخ النظم الدستورية ، أو النقد الأدبى — إذ ليس فى العالم قط بدايات — ولكن هذه الموضوعات كلها قد أفادت منه أكثر مما أفادته من أى رجل نعرفه من الأقدمين . والعلوم الطبيعية والفلسفة مدينة له بالعدد الجم من المصطلحات التى يسرت فى صورتها اللاتينية تبادل الأفكار . . منها المبدأ ، والنهاية ، والموهبة ، والوسط ، والصنف ، والطاقة ، والباعث ، والعادة ، والغاية ، principle, maxim, faculty, means, category energy, motive habit, end . ولقد كان كما سماه پيتر Pater « أول المدرسيين »(٢٣١) .

وكانت سيطرته الطويلة على الأساليب والبحوث والفلسفة مما يوحى بخضب تفكيره ، ونفاذ بصيرته . وإن كتابيه فى الأخلاق والسياسة(*) ليفوقان أمثالها كلها فى الشهرة وعميق التأثير حتى أيامنا هذه ، وإذا ما أنقصنا من تقديرنا له كل ما فيه من عيوب ، فإنه يبقى بعدها « سيد العارفين » . وذلك دليل مشجع على ما يمتاز به العقل البشرى من مدى واسع مرن ، وهو إلهام مطمئن إلى الذين يكدحون فى سبيل جمع معلومات الناس المتفرقة وتنسيقها وفهمها .

(*) لقد ترجم هذين الكتابين إلى اللغة العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد وطبعتهما بلجنة التأليف . (المترجم)